صور مشرقة من الجوانب الخلقية

للحـــرب والســــلام

فـي

الســـيرة النبويـــة

إعـــداد

محمـد جابـر أبـو الحديـد أبـو الخيـر

داعية إسلامى

وماجستير في العلوم التربوية

تقديــم

أ . د / محمـود محمـد عمـارة

الأستاذ المتفرغ بجامعة الأزهر

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب: صور مشرقة من الجوانب الخلقية للحرب والسلام في السيرة النبوية

المؤلف: محمد جابر أبو الحديد أبو الخير

الطبعة: طبعة أولى / ١٤٣٢هـ - ٢٠١١ م

الناشر: مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد

رقم الإيداع:

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر

٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة / ميدان حليم

خلف بنك فيصل شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا

٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ - ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤

٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦ - ٠١٠/٠١٠٤١١٥

إهــداء

إلى المخلصين الذين يدعمون كل عمل نافع يمكث في الأرض..

إلى محبى سيرة رسول الله ..

إلى كل ذكر وأنثى على ظهر هذه الأرض..

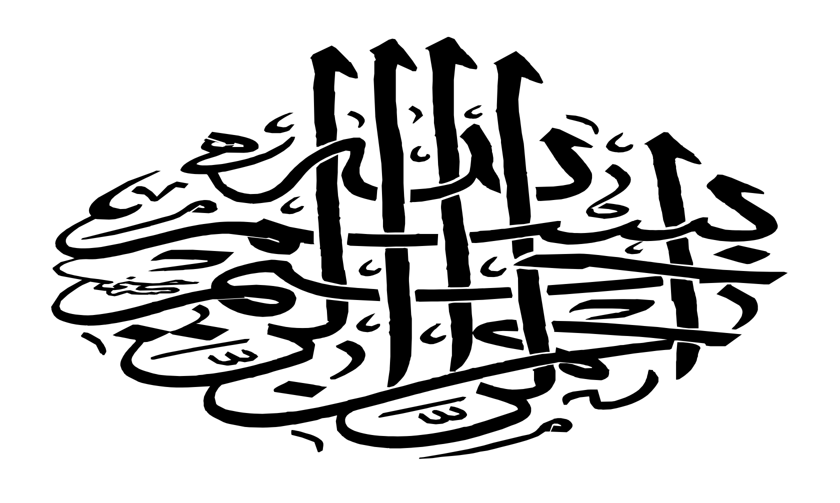
إلى كل غيور على دينه وعلى رسول الله ..

إلى أبي وأمى رحمهما الله، رجاء أن يجدا في هذا العمل المتواضع ثمرة بسيطة لغرس غرساه، وتكريما متواضعا لجميل يطوق عنقى ويصحبنى أيام عمرى..

إلى إخوتى وأخواتى من آدم ومن النسب.

إلى زوجتى وأولادى الستة، أحمد وإيمان وسارة وهاجر وأسماء وآلاء..

أهدى هذا العمل المتواضع



{ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟

فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ

إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ }

[البقرة: ٢٠٨]

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين...

وبعـــد:

يتناول هذا الكتاب أحد الموضوعات الملحة والمتجددة، والتى تصل في أهميتها إلى درجة كبيرة، وخاصة في هذا العصر دون غيره، فمنذ عقود قليلة قد خلت، وسهام الخصوم المسمومة أصبحت تتجه أكثر من ذى قبل - ربما لوفرة التقانات الحديثة - إلى الرسالة الخاتمة والعالمية، وأصبحت تهب من كل حدب وصوب، بإثارة الشبهات والافتراءات الزائفة حول أخلاقيات الحرب والسلام في السيرة النبوية المطهرة، حتى أصبح هناك نوع من الخلط الشديد والواضح في فلسفة الجهاد في سيرة رسول الله ، وكذلك في بعض المفاهيم والمصطلحات الهامة، كمفهوم الجهاد في الإسلام بمعناه الشامل، والذى كاد أن يكون محملا بظلال سلبية كثيرة.

لا جرم أن الذين يثيرون هذه الشبهات الزائفة، مثلهم كمثل الذى يريد أن يطفئ نور الشمس بنفخة من فمه! وهذا محال، بل هو وهم وزيف وغرور!.

وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على النصوص القوية من الكتاب والسنة والسيرة الصحيحة، كما اعتمد على المنهج التاريخى الذى يقوم على جمع وحصر الأصول والمصادر الأولية، وفحص المصادر الثانوية والتأكد من صحتها، وتنظيمها وترتيبها، على نحو يخدم أهداف الدراسة، وكذلك المنهج المقارن الذى عن جوانب التشابه والاختلاف بين الأحداث

أو المواقف.. هذا إضافة إلى الاستنباط والاستقراء والتحليل.. ومن هنا جاءت هذه الدراسة متعمقة ومتأنية، حرص فيها الباحث كل الحرص، أن تكون صوراً صادقة من حياة رسول الله ، تملأ النفوس والقلوب بما فيها من صدق ووضوح وقوة وحيـــاة، وبما فيها من جوانب أخلاقية عظيمة، ومواقف إنسانية تبلغ كل مدى، ورحمة تتسع لجميع الأمم والعوالم.

وقد اشتمل هذا الكتاب على خمسة فصول، استهله الباحث بفصل تمهيدى، برهن فيه بما لا يدع مجالا للشك والريب، أن رسول الله هو
" حامل لواء الرسالة الخاتمة والعالمية " من خلال مواقف تطبيقية حقيقية من السيرة النبوية العطرة.

أما الفصل الثانى، فقد أكد فيه أن النبى هو المثل الكامل للسلام وحسن الجوار والعلاقات الدولية، وذلك من خلال مواقف نبوية لا يرقى إليها أى مطعن.

وانطلاقا من ضرورة تحرير العقول الإسلامية، وغير الإسلامية من الخلط الشديد حول فلسفة القتال في السيرة النبوية العطرة، فقد أفرد الباحث فصلا كاملا حول هذا الموضوع الهام والحيوى، حاول فيه إزالة هذا الخلط حول عدد من المفاهيم والمصطلحات الهامة، كمفهــوم الجهاد في الإسلام كمنظومة شاملة، ومفهوم القتال المشروع، والتطــرف، والإرهـــاب، والغلو.... ثم وضح فيه بجلاء أهم القواعد والضوابط الخلقية للقتال في سيرة رسول الله والتى بلغت من التسامح والرحمة والرفق والعدل مبلغاً تعجز كل المذاهب والقوانين الحديثة أن تأتى بجزء منه حتى بعد جهادها لآلاف من السنين.

أما الفصل الرابع، فقد تناول صوراً تطبيقية مشرقة من الجوانب الخلقية للحرب في السيرة النبوية، وذلك من خلال الغزوات التى اشترك فيها النبى بصفة خاصة، يتجلى فيها التسامح في أبهى وأعظم صوره.

وإيماناً بوجوب دحض الشبهات والافتراءات الزائفة حول فلسفة القتال في السيرة النبوية المطهرة، وضرورة التصدى لها، فقد أفرد الباحث فصلاً كاملاً لبطلان ودحض هذه الشبهات، حاول من خلاله إزالة بعض غشاوات القلوب والأسماع والأبصار ممن مردوا على التشكيك والتزييف والإرجاف.

أ. د / محمود محمد عمارة

الأستاذ المتفرغ بجامعة الأزهر

وعضو مجمع البحوث الإسلامية

* * *

مقدمة

على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى، خاطب النبى ، منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، مؤكدا له - بأسلوب الحصر والقصر - بأنه رحمة للعاملين؛ أى أن رسالته لا تختص بأمة دون غيرها، ولا بمكان دون آخر، ولا بزمان دون زمان، ولا بالإنس دون الجن، ولا بالإنسان دون الحيوان والنبات والجماد، ولا بحالة دون أخرى.. ليكون الإنسان دائما متأملا في هذا البيان القرآنى، وفى عظمة التزكية الإلهية لحقيقة اللبنة الأخيرة والمباركة.

إلا أننا نجد أيضا هذا البيان القرآنى الآخر - بأسلوب الحصر والقصر أيضا - حين أعلن القرآن الكريم في صراحة ووضوح أن رسول الله ، أُرسل للناس كافة بشيراً و نذيرًا. نرى الحق تبارك وتعالى يقرر في نفس هذه الآية الكريمة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) [سبأ: ٢٨].

ومن هنا تأتى أهمية هذا البحث؛ وغيره من الأبحاث ذات العلاقة، والتى تصل في أهميتها إلى درجة الفرض أو اللازم، خاصة في هذا العصر بالتحديد، وذلك لأسباب كثيرة، لعل من أهمها ما يلى:

١ - أنه على الرغم من زخم التراث الإسلامى، والمكتبة الإسلامية بالعديد من كتب السيرة النبوية المطهرة، إلا أن الأبحاث والدراسات السابقة في هذا الجانب الهام والحيوى لا تتعدى سوى مقالات نادرة هنا وهناك. الأمر الذى يعطى لهذا البحث أهمية كبيرة، حتى يعلم الخصوم، ويقف الناس جميعا على الحقيقة الناصعة للجوانب الأخلاقية للحرب والسلام في سيرة رسول الله ، والتى يتجلى فيها التسامح في ذروته، والرحمة في أبهى صورها، والعفو الذى لا يبلغه أحد، والمثُل العليا للكمال الإنسانى في كل ما تتسع له طاقة أى إنسان.

ومن ذا الذى يستطيع أن يحصى هذه الجوانب الأخلاقية؟! وهى أخلاق النبوة في أعلى كمالات البشر! فمن ناحية الغاية والهدف تحتاج هذه الجوانب إلى بحوث كثيرة، ومن ناحية المنهج والأسلوب تحتاج إلى جهد لا ينقطع، ومن ناحية القواعد والضوابط تحتاج إلى مجلدات، ومن ناحية النتائج والآثار والجوانب التطبيقية تحتاج إلى موسوعات... وكل هذا في جانب واحد من سيرة رسول الله ، وهو الحرب أو القتال.. فما بالنا بالجوانب الأخلاقية الأخرى التى تجل عن الحصر؟!!

٢ - ومما يزيد هذا البحث أهمية، أنه منذ عقود قد خلت، وسهام الخصوم المسمومة تتجه إلى الرسالة الخاتمة والعالمية وصاحبها، إلا أن هذه السهام قد تحرشت أكثر من ذى قبل - ربما لوفرة التقانات الحديثة -

وأصبحت تهب من كل حدب وصوب، لا همَّ لها إلا التشكيك بالافتراءات والشبهات الزائفة، حتى أصبح هناك نوع من الخلط الشديد والواضح في فلسفة الجهاد في السيرة النبوية المطهرة، وكذلك في المفاهيم والمصطلحات الهامة، كمفهوم الجهاد في الإسلام بمعناه الشامل، والذى كاد أن يكون محملا بظلال سلبية كثيرة.

لا جرم أن الذين يثيرون هذه الشبهات، مثلهم كمثل الذى يريد أن يطفئ نور الشمس أو نور القمر بنفخة من فمه! وهذا محال؛ بل هو وهم وزيف وغرور!.

وأعتقد أن الذى يقض مضاجع هؤلاء في هذا العصر بصفة خاصة، هو أن هذا الدين الخاتم والعالمى - حتى ولو مر أهله أحيانا بفترات ضعف - بما يتضمن من أصول ومبادئ لا يرقى إليها أى مطعن؛ فيه من قوة الاستمرار، وذاتية الانتشار، ما يلفت النظر ويحير عقول المعترضين والمرجفين.

كما أن الله عز وجل - بين الحين والحين - يقيض لهذا الدين المتين، من يدحض بحماس شديد هذه الشبهات والافتراءات المزعومة، على أيدى علماء كبار لهم شهرة عالمية، بل ومن غير المسلمين، حتى إن البعض منهم يعتبر هذه الادعاءات الباطلة وهم وسخف وخرافة!

أما بالنسبة لمنهج البحث، فقد اعتمدتُ على المنهج التاريخى الذى يقوم على جمع وحصر الأصول والمصادر الأولية، وفحص المصادر الثانوية والتأكد من صحتها، وتنظيمها وترتيبها، على نحو يخدم أهداف البحث الحالى، ثم عرضها عرضا منطقيا. كما اعتمدتُ كذلك على المنهج المقارن الذى يكشف عن جوانب التشابه والاختلاف بين الأحداث أو المواقف أو الظاهرات.. هذا إضافة إلى الاستنباط والاستقراء والتحليل.. لأنه بدون ذلك تكون معظم معالجات الحقائق غير مثمرة.

وأما حدود هذا البحث، فقد حاولت جهدى أن أسير في حدوده المقصودة لا أتعداها؛ وهى التركيز على الجوانب الأخلاقية للحرب من خلال السيرة النبوية المطهرة، ولم استشهد بالقرآن الكريم إلا في أضيق الحدود؛ مما هو لا بد منه، أو في سياق اقتباس معين؛ يبرهن فيه أحد الباحثين - مثلا - أن رسول الله هو المثل الأوفى للقرآن الكريم في خلق معين.

الفصل الأول

محمد حامل لواء الرسالة الخاتمة والعاطية

حاجة الإنسانية الملحة إلى رسول خاتم :

إن الرسل الكرام - صلوات الله عليهم أجمعين - يمثلون ذروة الكمال البشرى، لأن الله عز وجل اصطفاهم من سائر البشر، ولذلك فهم يمثلون أيضاً ذروة العبودية الخالصة لله عز وجل، ويقومون بأجل وأضخم مهمة في الوجود، وهى مهمة هداية الإنسان إلى طريقه الصحيح.

وقد تعاقب على الناس - من لدن آدم حتى عيسى عليهما السلام - العديد من الرسل والأنبياء، قصَّ القرآن الكريم على رسول الله بعض هؤلاء الرسل والأنبياء عن طريق الوحى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْيَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ } [غافر: ٧٨].

وجاء كل رسول على فترة من الرسل قبله، وكان الله سبحانه وتعالى يرسله إلى قوم من الأقوام، ليعالج ما فسد من أمورهم بالطريقة التى تلائم حالها، وكلما فسدت أحوال قوم وضلوا عن طريق الحق، أرسل الله عز وجل إليهم رسولاً منهم يهديهم إلى الطريق السوى المستقيم، فإذا تمادَّوا في العصيان، ولجوا في الضلال، أرسل إليهم رسولا بعد رسول، كما صنع الله سبحانه وتعالى

مع بنى إسرائيل:

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ. [فاطر: ٢٤].

وقد بعث الله سبحانه وتعالى محمدا ، على فترة من الرسل أيضاً، " بعد عيسى عليه السلام بستمائة سنة - على أرجح الأقوال - وذلك بعد أن عَّم الفساد جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهرا في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين " [(١)].

وقد أوجز أحد الباحثين حالة العالم قبل بعثة رسول الله في كلمات يسيره " صراع ودماء ودمار، يتبعها نهب وسلب وتسلط "

---

(١) ابن كثير الدمشـــقى: تفســـير القرآن العظيم، المجلد الثانى، ط١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٦، ص ٥٧.

[1].والحقيقة التى لا مراء فيها أن العالم كله كان في أمس الحاجة إلى رسول خاتم من عند الله عز وجل يخرجهم من الظلمات إلى النور، فقد كانت حالة الناس - كل الناس - قبل مبعث النبى قد وصلت الذروة في الفساد، " وبلغت الدرك الأسفل من الانحطاط، وغشت العالم كله ظلمات كثيفة من الكفر والجهل والفجور، وغيَّر الناس وبَّدلوا في الدين، وحرَّموا كثيرا مما أنزل الله عز وجل على رسله من الكتب، وعبدوا من دون الله آلهة شتى.. فمنهم من كان يعبد بوذا، ومنهم من كان يعبد البقر، والنار، والملائكة والجن، والصور والتماثيل، وأرواح الموتى، ومظاهر الطبيعة من شمس وقمر وكواكب ونجوم وأشجار وأنهار وحجارة.. " [2].

وشاعت الخرافات والأوهام، وظهر الفساد في البر والبحر، وتفرق أهل كل دين إلى مذاهب وشيع، واشتد بينهم الخلاف والجدل العقيم

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ [التوبة: ٣٠].

وكان العرب أسوأ الناس حالاً في ذلك الوقت، وأشدهم إمعانا في الجهالة والضلالة، فقد أشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانا، وعبدوا كل ما هب ودب من الأصنام والأوثان..... واعتقدوا أن الهواء والشمس والقمر والكواكب والنجوم والحجارة.... تتصرف في أمورهم وفى مستقبل حياتهم، وبالغوا في الشرك مبالغة كبيرة، وأحاطوا الكعبة - وهى البيت الحرام - بالمئات من الأصنام، واستقسموا بالأزلام، وأشركوا الأصنام في حرثهم وأنعامهم، وجعلوا الملائكة بنات الله، وآمنوا بالخرافات كالفأل والطير والكهانة والعرافة، وكانت الدنيا أكبر همهم، ولذلك أسرفوا في الملذات والخمر والميسر، وجعلوا المرأة نوعا من المتاع ومجلبة للحزن ومظنَّة للعار، وكانت مناقشة تافهة تكفى لإشعال حرب طاحنة " [3]

ويكفى أن نشير إلى مثال واحد من هذه الحروب، يدل على أن هذه الحروب كانت أسبابها تافهة لأبعد حد، ونتائجها مريرة جداً. " فحرب البسوس - مثلا - كانت بين بكر وتغلب، وقد استمرت أربعين سنة، وسببها أن كليبا بن ربيعة من تغلب رمى بالنبل ناقة البسوس بنت منقذ التميمية، والبسوس خالة جساس بن مرة بن بكر، فاستجارت البسوس بجساس فقتل جساس كليبا،

---

(١) أحمد شلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإسلامى، ط٥، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٧، ص ٢٠.

(٢) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ج١، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٧، ص١٦٧.

(٣) أمين دويدار: مرجع سابق، ص ١٦٨ - ١٧٩(بتصرف).

وكان كليب زوجا لجليلة أخت جساس، وقامت الحرب التى دمرت الجميع، حتى قال المهلهل أخو كليب: قد فنى الحيان، وثكلت الأمهات، وتيتم الأولاد، دموع لا ترفأ، وأجساد لا تدفن " [(١)].

من ناحية أخرى كان لا يدين بالحنيفية - دين إبراهيم عليه السلام - سوى زيد بن عمرو بن نفيل، وكان شيخا كبيراً طاعنا في السن، تقول أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنهما: " لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخا كبيرا مسندا ظهره إلى الكعبة، وهو يقول: " يا معشر قريش، والذى نفس زيد بن عمرو بن نفيل بيده، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى "، ثم يقول: " اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكنى لا أعلمه، ثم يسجد على راحته " وله في ترك الوثنية وفراق دين قومه شعرا منه:

واحدا أم ألف رب إذا تقسمت الأمور
اللات والعزى جميعا يفعل الجلد الصبور [(٢)]

هذه صورة مجملة وموجزة للحالة التى كان عليها العالم كله بصفة عامة، والعرب بصفة خاصة، والتى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك، أن الحاجة كانت ماسة وملحة إلى رسول خاتم من عند الله، ينقذ الناس جميعا من الضلال:

يهدي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٦].

* * *

محمدٌ اللبنة المباركة الخاتمة

إن الحقيقة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، هى علامة الكون وعلامة التاريخ.. قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا في حاجة إلى رسالة.. وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة.. ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ [(٣)].

---

(١) أحمد شلبى: مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) ابن هشام، أبى محمد عبد الملك: سيرة النبى ﷺ، القاهرة: النور الإسلامية، (د - ت)، ج١، ص ٢١١، ٢١٢.

(٣) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، بيروت: المكتبة العصرية، (د - ت)، ص ١٩.

ويعبر النبى أبلغ تعبير، وهو يصور هذا التدرج الذى حدث بين الأديان السماوية السابقة، بصورة ارتقائية تصاعدية متناغمة في مراتب الشمول والكمال، ومسايرة لدرجات الترقى في مستويات البشرية حتى وصلت إلى الإدراك المناسب لفطرتها، وبلغت رشدها الفكرى في عهد بعثته وارتبطت الأمم - إلى حد كبير - بعضها ببعض.. فخُتمت الرسالات برسالته، كما خُتمت الأديان السماوية بدين الإسلام الذى رضيه الله سبحانه وتعالى للناس كافة إلى يوم القيامة، دينا قويما، وصراطا مستقيما.. يصور النبى ذلك كله تصويرًا صادقًا ودقيقًا في حديثه الشريف - كما أخرج البخارى - عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله قال: " إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين "[1]. والله سبحانه وتعالى يؤكد هذا المعنى في قوله تعالى: مَا كان مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴿٤٠﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: سمعت النبى يحدث قال: " كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبيـاء، كلما هلك نبى خلفه نبى، وإنه لا نبى بعدى "[2].

محمدٌ صاحب الرسالة العالمية العامة

إن من أهم ما يميز رسالة النبى عن سائر الرسالات السابقة، أنها رسالة عامة وشاملة وعالمية؛ ليست لجنس دون سواه، ولا لشعب مختار دون آخر، ولا للسود دون الحمر.. بل هى لكافة الأمم والأجناس دون تمييز، وذلك منذ مبعث رسول الله وحتى قيام الساعة، فلو كانت رسالة خاصة أو شخصية، فما كان رسول الله - وهو صاحب الخلق العظيم - ليخالف أمر عمه ورغبته الشديدة عندما ضغطت عليه قريش بكاملها ليثنى رسول الله عن دعوته! ولكن الأمر أبعد من ذلك بكثير.. إنه أمر هذا الدين الإسلامى الخاتم الذى لا بد أن يكمل، والنعمة التى لا بد أن تتم، والإسلام الذى رضيه الله عز وجل للناس جميعاً.

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج ٣ /١٤٧٣، كتاب الفضائل، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٦، ص ٩٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ط١، ج٣ / ١٨٤٢، كتاب الإمارة، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥، ص ١٤٧١.

ولذلك قال النبى عبارته المشهورة التى ما زالت تدوى حتى الآن: " يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يمينى، والقمر في يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته "[1] ولذلك أقسم النبى لأهله وعشيرته في أول خطبة له بمكة، ليؤكد لهم أنه رسول الله إلى الناس كافة عندما قال:

" إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا، وإنها للجنة أبدا، أو النار أبدا "[2].

كما أن رسول الله يخبر عن ذلك في الحديث الذى أخرجه البخارى في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه، أن النبى قال: " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لى المغانم ولم تحل لأحد قبلى، وأعطيت الشفاعة، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت للناس عامة "[3].

والأهم من ذلك كله أن رسول الله ما كان ليؤكد لهم عموم رسالته من تلقاء نفسه، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذى أمره أن يعلن هذه الحقيقة للناس جميعاً، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد البلاغ

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]

وقوله تعالى:

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. [المائدة: ٦٧].

---

(١) ابن هاشم، أبى محمد عبد الملك، مرجع سابق، ج١، ص ٢٥٠.

(٢) عبد الجليل عبده شلبى: الخطابة وإعداد الخطيب، ج٢، القاهرة: وزارة الأوقاف، ١٩٩٢، ص ٣١.

(٣) البخارى: البخـارى بحاشية السندى، ج١، كتاب التيمم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، (د - ت)، ص٧٠.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية.. " عندما أمر الله عز وجل نبيه أن يبلغ رسالته، قال : " يارب كيف أصنع وأنا وحدى يجتمعون على؟ " فنزلت: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ. [المائدة: ٦٧]. أى بلغ أنت رسالتى، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك " [١] وقد عصمه الله سبحانه وتعالى واستمر النبى يدعو إلى الله تعالى ليلا ونهارا، وسرا وجهرا، لا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يرده عن ذلك راد، ولا يصده عن ذلك صاد حتى أدى الأمانة وبلغ الرسالة، وأعلن هذه الشهادة يوم الحج الأكبر.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ [المائدة: ٣].

كما أن النبى أَشهد الله سبحانه وتعالى وأشهد الناس جميعا في ذلك اليوم قائلا: ".... ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، ألا هل بلغت؟ مرتين " [٢]. وتأسيساً على ذلك فإن الإنسانية كلها أصبحت ببعثة النبى ملزمة أمام الله عز وجل بشريعة واحدة هى شريعته، وليس أمام أحد من البشر خيار سوى سلوك الطريق الذى هدى إليه، وإلا أصبح من الضّالّين، وهذا هو المعنى الذى أشار إليه النبى ، بوجوب الإيمان برسالته، ونسخ جميع الملل بملته، حين قال: " والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار " [٣].

ولما كانت رسالة النبى رسالة خاتمة وعالمية، فإن الله عز وجل جعل فيها من الأدلة الواضحة، والحجج الدامغة بحيث لا يبقى حجة لمحاج، أو شبهة لأحد، وخصها الله سبحانه وتعالى كما خص صاحبها بعدة خصائص هامة لعل من أهمها ما يلى: -

---

(١) ابن كثير الدمشقى، تفسير القرآن العظيم، مج٢، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١٠٩٩٤/٢، كتاب القسامة، مرجع سابق، ص ١٨٣.

(٣) مسلم: صحيح مسلم بشرح النووى، مج ١، ج ٢، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٩٩٦، ص ١٨٦.

أولاً: ثبوت ودوام رسالته بمعجزته القاطعة (القرآن الكريم):

أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله قال: " ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحى الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يـوم القيامة " [١].

قال النووى في شرح هذا الحديث: " إن كل نبى أعطى من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأما معجزتى العظيمة الظاهرة فهى القرآن الكريم الذى لم يعط أحد مثله، فلهذا قال أنا أكثرهم تابعا يوم القيامة. وقيل أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم، ومعجزة نبينا محمد القرآن الكريم المستمرة إلى يوم القيامة، مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، وعجز الإنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار [٢].

فالرسـل السابقـة - صلوات الله وسلامـه عليهـم - كانـت معجزاتهـم شاهـدة على صـدق الوحـى الـذى أنـزل إليهم وبلغوه، أما رسول فإن معجزتـه كانـت في نفـس الـوحى، الـذى فيـه الدليـل القاطع على أنه من عنـد الله عـز وجـل، إذ هـو ذاتـه المعجـزة، ولذلك عندمـا كـان المشركون يطلبـون آية، كـان الوحى يلفـت نظرهـم إلى أن الآية بين أيديهم، ولكنهم يجحدونها:

فالمعجزة ظاهرة ومحسوسة، يستطيع كل إنسان - إن صدق - أن يعرفها ويتقنها:

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وإلى جانب ثبوت واستمرار رسالة النبى بمعجزته الخالدة (القرآن الكريم) بما تضمنته من عقائد وشرائع ونظم، تهدف إلى تنظيم علاقة الناس بالله عز وجل أولاً، وعلاقتهم بعضهم ببعض ثانياً، فإن الذى اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التى تفوق المعجزات، لأنها في ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولاً سائغاً سهلا بغيـر عنت ولا استكراه، فكان محمد مستكملا للصفات التى لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة، كانت له فصاحة اللسان واللغة.. وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨٦.

(٢) المرجع السابق، ص ١٨٨.

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها.. وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول.. ولكنها هى التى عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.[١].

ولذلك المتأمل في حديث رسول الله ، يجد النبى يقول الكلمة القصيرة فتبلغ كل مبلغ، وتحيط كل إحاطة، وتصل إلى أدق القضايا، ويتفاوت الناس في الأخذ منها على مقدار ما أوتوا من علم وحكمة وذكاء.

ولذلك ليس عجباً أن يصف البعض مجهود النبى ، في أول عهده بالمدينـة، بأنه إعجاز جدير بالإعجاب والتقدير، حين آخى بين المهاجرين والأنصار، وعقد ميثاقاً دقيقا ومحكما مع اليهود على أساس من الحرية والتحالف، وربط بينهم وبينه برابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب سماوى، ولم يسبق النبى في ذلك نبى من الأنبياء قبله، " فقد كان عيسى وموسى عليهما السلام، وكل من سبقهما من الأنبياء يقفون عند الدعوة الدينية البحتة يبلغونها للناس، مؤيدة بالحجج والمعجزات، ثم يتركون لمن بعدهم من السياسيين وذوى السلطان أن يعملوا على نشر هذه الدعوة بما عرفوا به من مقدرة سياسية وفنية وحربية، ولكن محمدا كان الرسول، وكان السياسى، وكان القائد، وكان الفاتح، وكان المجاهد، وكان الزوج، وكان المربى... [٢] وما كان كل ذلك ليكون لولا أنه صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية.

هذا الجانب الجوهرى في شخصية رسول الله ، قد لفت نظر العالم " ميشيل (مايكل) هارت " ١٩٧٨، الذى ألف كتابا بعنوان " الـ ١٠٠ تقييم لأعظم الناس تأثيرا في التاريخ " [*] وهو رجل يهودى أمريكى غير مسلم، يقول " هـارت ": " إن سبب اختيارى لمحمد نبى الإسلام ليكون على رأس قائمة أعظم العظماء في التاريخ القديم والحديث، هو أن محمداً نجح إلى حد باهر على الجانبين الدينى والدنيوى معا.. فربما كان تأثير محمد على الإنسانية من الناحية الدينية المحضة يساوى تأثير المسيح، إلا أن محمدا (على عكس المسيح) كان قائدا دنيويا كما كان قائدا دينيا [٣].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) محمد بيصـار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ١٩٧٣، ص ١٩٨.

(*) هذا الكتاب اشتهر على لسان البعض بعنوان (العظماء مائة أعظمهم محمد).

(٣) أحمد ديدات: محمد رسول الله أعظم العظماء، ترجمة أحمد شوقى عرفة، القاهرة: مركز الكتاب للنشر، ٢٠٠٠، ص ٧، ١٢.

وقد عبر النبى أبلغ تعبير حول هذا المعنى، حين قال في الحديث الشريف، الذى أخرجه البخارى في صحيحه، عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله قال: " بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب " [1].

* * *

ثانياً: أنه رحمة للعالمين بمعجزته الأخلاقية:

إن أبرز سمة في شخصية رسول الله المتعددة الجوانب، أخلاقه التى لا مثيل لها، فلو جُمع كل خلق عظيم في العالم، وكل تصرف أخلاقى سليم تصرفه إنسان في يوم من الأيام، فإن ما نجده في حياة رسول الله يربو على هذا كله مجتمعا، مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته عليه السلام [2].

فمن معجزات رسول الله أخلاقه العظيمة التى لا ينضب معينها أبدا، ولا يمكن الإحاطة بجوانبها الكثيرة، لأنها أخلاق النبوة في أعلى كمالات البشر، وكأنها متلاحمة مع قول الحق تبارك وتعالى:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ [الكهف: ١٠٩].

وكيف لا؟! وقد أكد الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله تعالى:

وأنك لعلى خلق عظيم [القلم: ٤].

والشئ العظيم هو الشئ الرفيع القدر، الجليل الشأن، السامى المنزلة، " والتعبير بلفظ " على " يدل ويشعر بتمكنه وبرسوخه في كل خلق عظيم، مما يعجز القلم عن بيان ما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة " [3].

وكما أن الله سبحانه وتعالى وصف القرآن الكريم (المعجزة) بأنه عظيم.

فقد وصف كذلك خلق النبى بأنه " عظيم "، وعندما سئلت السيدة عائشة - رضى الله عنها

---

(١) البخارى، أبى عبد الله محمد بن إسماعيل: صحيح البخارى، ج٩، القاهرة: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة: مطبوعات محمد على صبيح وأولاده (د - ت)، ص ١١٣.

(٢) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ج١، القاهرة: مكتبة وهبة (د - ت) ص ١١٨.

(٣) محمد سيد طنطاوى: هذا هو الإسلام (حوار هادئ مع قداسة بابا الفاتيكان)، هدية مجلة الأزهر، ذى القعدة، ١٤٢٧ هـ، ص ٤٧.

- كما أخرج مسلم في جملة حديث طويل - عن خلق النبى قالت: " كان خلقه القرآن "، فإذا كان القرآن الكريم معجزة - كما هو معلوم - ورسول الله خلقه القرآن، والقرآن الكريم وخلق النبى كلاهما عظيم، فالنتيجة الحتمية أن خلق النبى معجزة عظيمة.

ولذلك فإن المتعمق الفاحص في حياة رسول الله ، وفى سيرته العطرة، يلاحظ شيئا غريبا لا يشعر به إلا القليل، وهو أن كل من شاهد النبى ، وعرفه، وتحدث معه، - سواء كان صديقا أم عدوا - قد أسلم في ضميره، لأن خلق النبى لا يرقى إليه أى مطعن، إلا أن يكون هذا الرائى أعمى البصيرة

كمال النبى في أمهات الأخلاق؛ كماله في رحمته، وفى عفوه، وفى علمه، وفى عدله، وفى تواضعه، وفى استقامته، وفى جوده وكرمه، وفى صبره، وفى حلمه ورفقه، وفى زهده، وفى حيائه، وفى صمته، وفى وقاره، وفى شكره، وفى حسن معاملته كزوج ومعلم، وفى لطفه، وفى شجاعته، وفى سلمه، وفى حربه، وفى مزاحه.... كل هذا وغيره لشاهد صدق، ودليل حق على معجزته الأخلاقية، وعلى أنه المثل الأعلى للإنسان الكامل في كل جانب.

ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون:

على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى وصف النبى بما وصف به نفسه من قوله سبحانه

قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨].

ورغم تقرير وتأكيد القرآن الكريم أن رسالة النبى رسالة عامة وعالمية للإنس والجن

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ [سبأ: ٢٨].

إلا أن الله سبحانه وتعالى يقرر ويؤكد في نفس الآية ".. ولكن أكثر الناس لا يعلمون " والحقيقة أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يزالون لا يعلمون حقيقة هذه الرسالة الخاتمة والعالمية بما فيها من يسر وسماحة وسلام ورحمة، وهداية، وخير وسعادة في الدنيا والآخرة.

ولذلك سوف أحاول أن ألقى الضوء على جزء من جانب خلقى واحد وهو خلق الرحمة في حياة رسول الله ، نعرف من خلال هذا الجزء اليسير، الرحمة التى تفيض حتى تعم جميع الخلائق بما فيهم الحيوان و الطير والحشرات.. وحتى الجماد، ولكنها الرحمة التى لا تجاوز محلها فتطغى على صفات الكمال الأخرى عند رسول الله.

- فقبل البعثة، كان النبى في فترة طفولته وشبابه - كما أجمعت كتب السيرة - يمتاز على كل من يعيشون معه في بيئته بطابع خاص لا يشاركه فيه غيـره، هو طابع الكمال في كل شئ، ذلك أن الله جلت قدرته تولاه منذ طفولته بالحفظ والصيانة، فعصمه من عبث الجاهلية وفسادها، وطهره من خبائثها، فكان صورة مثالية للكمال الإنسانى، ونموذجًا حيا للفضيلة في أسمى معانيها. " فما رُئى يوما قط - في شبابه - لاهيًا، ولا آثما، ولا فاحشا، ولا مقامرا، ولا معاقرا خمرا، ولا متدنسا في نزوة من نزوات الشباب الجامحة، بل كان سمته الجد والعفاف، وطابعه الوقار والكمال، مع سماحة في الطبع، وطلاقة في الوجه، وحلاوة في اللسان، جعلته محببا إلى كل من يعاشره أو يحادثه أو يلقاه. " [1].

هذا السمو الأخلاقى كان معروفا لأهل مكة جميعا، فوصفوه بأحسن ما يمكن أن يوصف به إنسان من صفات الكمال، فهم الذين أسبغوا عليه لقب الصادق الأميـن، حتى صار هذا اللقب علما عليه لا ينادى إلا به، ولا يذكر إلا به، وعرفوه الوفى الذى لا يغدر أبدا، والناصح الذى لا يغش، والأمين الذى لا يخون، كما عرفوه طاهر النفس، واسع الحلم، رحيم القلب، جم التواضع، كريم العشرة، حسن الجوار، ولمسوا فيه رجاحة العقل، وعلو الهمة، والزهد فيما يتكالب الناس عليه من متاع الدنيا، وكل صفات الخير التى ألفوها في رسـول الله ، والتى لا تتوافر في أحد من أقرانه ولا من أهل بيته.

- أما بعد البعثة، فقد شملت الرحمة عند رسول الله الإنس والجن، المسلم وغير المسلم، والحيوان والنبات والطير.. بل والجماد أيضا.

" ويسمى علماء اللغة والبلاغة هذا الأسلوب القرآنى " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " بأسلوب الحصر والقصر، أى أنه حصر رسالة النبى ، وبعثته للناس كافة في شئ واحد، ألا وهو الرحمة، وكلمة العالمين كلمة شـاملة عامة، تشمل جميع الخلق على سائر أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومعتقداتهم بل تشمل الإنس والجن... " [2].

إن هذه الرحمة المحمدية أهدت إلى البشر جميعاً جملة من الحقائق التى يفتقرون إلى معرفتها " فوفرت عليهم عناء التيه في دروب من الباطل لا حصر لها.. ألم تجعل الحق في متناول اليد؟! والنفع المنشود ميسورا في العاجلة مضمونا في الآجلة؟ فهى رسالة رحمة تمتاز بالشمول والوعى، سواء في المجال النفسى أو الاجتماعى أو السياسى أو الاقتصادى... فكان الناس - ولا يزالون - بين كافر ينكر الألوهية تماما، أو مؤمن معتل الفكر في تصوره للألوهية وفى علاقته بالله الكبير وما أغرب الطرفين المتناقضين!

---

(١) أمين دويدار: صورة من حياة الرسول، ج١، مرجـع سابق، ص ١٢٣ - ١٢٥ (ببعض تصرف).

(٢) أحمد عمر هاشم: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، مجلة منبر الإسلام، السنة (٦١)، العدد (١٢). القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، فبراير ٢٠٠٣، ذو الحجة ١٤٢٣ هـ، ص ٢٠.

وقد جاء محمد ليعلن عن إله واحد لا شريك له، خلق كل شئ، فأنقذ الناس من هذا الإلحاد وعواقبه الشائنة، وعَّرف الناس بالله عز وجل على أصدق وجه، وبأقوى دليل بما جاء به من هدى إلى جميع الأجناس:

ونظرة سريعة في سيرة رسول الله ترينا أبعاد هذه الرحمة، والمدى الواسع لها:

١ - أخرج البخارى في صحيحه، عن أبي هريرة - رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله يقول: " قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت،فأوحى الله إليه - أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح؟! " [١].

٢ - كما أخرج البخارى أيضا، عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنه، أن رسول الله قال: " عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها ولا سقتها إذ هى حبستها، ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض " [٢].

٣ - وأخرج البخارى أيضا، عن أبي هريرة - رضى الله عنه، أن رسول الله ، قال: " بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا، فشرب منه، ثم خرج؛ فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى (التراب الندى) من العطش. فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلع بي. فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، ثم رقى، فسقى الكلب. فشكر الله له فغفر له " قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجرا؟ قال: " في كل كبد رطبة أجر " [٣].

٤ - وأخرج البخارى كذلك، عن أبي هريرة - رضى الله عنه، قال: قال النبى : " بينما كلب يطيف (يدور) بركية (بئر) كاد يقتله العطش، إذ رأته بغى من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت موقها (خفها وهى كلمة فارسية معربة) فسقته، فغفر لها به " [٤].

٥ - وعن جابر - رضى الله عنه - كما روى البخارى - قال: " كان جذع يقوم إليه النبى - يعنى في الخطبة - فلما وضع المنبر، سمعنا للجذع مثل صوت العشار حتى نزل النبى ، فوضع يده عليه فسكن " [٥].

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج٣/١٤٤٥، كتاب السلام، مرجع سابق، ص ٧٤.
(٢) المرجع السابق، ج٣/١٤٤٦، ص ٧٤.
(٣) المرجع السابق، ج٣/١٤٤٧، ص ٧٤، ٧٥.
(٤) المرجع السابق، ج٣/١٤٤٨، ص ٧٥.
(٥) النووى، أبى زكريا يحيى بن شرف النووى الدمشقى: رياض الصالحين، ط٢، القاهرة: مطابع دار التراث العربى، ١٩٨٣، ص ٤٦٥، ٤٦٦/١٨٣١.

هذه نماذج من رحمة رسول الله ، والتى أظلت الناس جميعا، وبلغت كل الكائنات الحية والجماد.. رسول يخبر بأن امرأة تعذب لأنها عذبت هرة، وامرأة بغى غفر لها لأنها سقت كلبا شربة ماء، ويخبر بأن الله سبحانه وتعالى قد عاتب نبيا من الأنبياء في قرية نمل، ويضع يده على الجماد حتى يسكن ويطمئن.. أليس عجبا أن يوصف صاحب هذه الرحمة التى تفيض حتى تعم كل شئ، بالعنف أو العدوان أو الإرهاب؟!! ألا بئس ما يزعم المبطلون والمرجفون.

٦ - لقت وسعت رحمة النبى ، المسلم وغير المسلم، فبلغ من حرصه ورحمتـه، أن غلاما يهوديا كان مريضا، فزاره النبى ، فكانت زيارته رحمة على هذا الغلام اليهودى لأنه دخل الجنة بسببها. فعن أنس رضى الله عنه، أن غلاما من اليهود كان مَرِضَ، فأتاه النبى يعوده، فقعد عند رأسه فقال له " أسلم " فنظر إلى أبيه وعند رأسه فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقام النبى وهو يقول: " الحمد لله الذى أنقذه بى من النار " [(١)].

وهذا الصنيع ليس إلا كمثال من أمثلة عديدة، لأن صاحب هذه الرحمة، هـو القائل: " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السـماء " [(٢)].

وهو القائل - كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه -: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ، صاحب هذه الحجرة يقول: " لا تنزع الرحمة إلا من شقى " [(٣)].

كما قال - كما أخرج البخارى -: " من لا يرحم لا يرحم " [(٤)].

فهل لو سادت هذه التعاليم الرحيمة في مشارق الأرض ومغاربها.. فماذا ستكون النتيجة؟!! ستكون حتما سلام، ومحبة، وسعادة، وعدل، وأخوة، وحريـة.. نعم " ولكن أكثر الناس لا يعلمون ".

٧ - نهى رسول الله عن قتل النفس أيا كانت، مسلمة أو غير مسلمة، كما حذر تحذيرا شديدا من إيذاء أو ظلم غير المسلمين أو المعاهدين... (وهذا سوف نبينه في القواعد الخلقية للقتال فيما بعد).

---

(١) أبو داود، أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى: سنن أبى داود، مج٢، ج٣/٣٠٩٥ كتاب الجنائز، القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د - ت)، ص ١٨٥.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٤/٤٩٤١، كتاب الأدب، ص ٢٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(٤) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـيخان، ج ١٤٩٨/٣، كتاب الفضـائل، مرجع سابق، ص ١٠٣.

ثالثاً: أنه الأسوة الحسنة في التسامح مع الجميع:

لا ريب أن رسول الله هو المثل الأوفى للقرآن الكريم في التسامح وحسن معاملة الآخرين على اختلاف أجناسهم ومعتقداتهم، كما أنه لا يخفى أن الآيات القرآنية الكريمة في التسامح أشهر من أن تذكر؛ سواء في العقيدة، أو العبادات، أو المعاملات والعلاقات الإنسانية واليومية في جميع المجالات.

فالعقيدة الإسلامية ليس فيها غموض، ولا عصبية، ولا نظرية جانحة، بل احترام لجميع الرسل وإيمان بهم جميعا دون تفريق، بل إن ذلك من شروط الإيمان بالله عز وجل، وهى - أى العقيدة - في سهولة ويسر لا تتعدى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره. أما العبادات فهى ميسورة لكل إنسان لا حرج فيها ولا مشقة. وأما المعاملات على اختلاف أنواعها وأشكالها، فأينما ولى الإنسان وجهه في أى شأن من شئون الحياة إلا ووجد نفسه مأمورا ومطالبا بالتسامح وحسن معاملة الجميع انطلاقا من توجيهات رسول الله التى لا حصر لها.

والتزاما بحدود هذا البحث المتواضع - وهى السيرة النبوية المطهرة - فإن الاستشهاد ببعض الآيات القرآنية يكون في أضيق الحدود، ولذلك فإننى سوف أسوق بعض الأمثلة من سيرة رسول الله ، والتى يتجلى فيها التسامح في أبهى صـوره: -

١ - أخرج البخارى في صحيحه، عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: بعث النبى خيلا قبل نجد، فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة ابن أثال، فربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ، فقال: " ما عندك يا ثمامة؟ " فقال: عندى خير يا محمد: إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت. حتى كان الغد. ثم قال له: " ما عندك يا ثمامـة؟ " قال: ما قلت لك، إن تنعم تنعم على شاكر. فتركه حتى كان بعد الغد. فقال: " ما عندك يا ثمامة؟ " فقال: عندى ما قلت لك. فقال: " أطلقوا ثمامة " فانطلق إلى نجل قريب من المسجد فاغتسل، ثم دخل المسجد فقـال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهـد أن محمداً رسـول الله. يا محمد: والله! ما كان على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى. والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلى. والله! ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة، قال قائل: صبوت. قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولا، والله! لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى

[1]- ما نتيجة هذا المثل الرائع في التسامح؟!

لم يقتصر هذا المثل الرائع في التسامح على دخول ثمامة بن أثال في الإسلام وحبه الشديد لرسول الله ، بل إن ثمامة عندما أقسم قائلا: " والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبى "؛ وذلك عندما تهكمت به قريش وهو يعتمر، " فقد أرسل أهل مكة لرسول الله يطلبون منه أن لا يتوقف ثمامة عن بيع القمح لهم، لأن معنى ذلك مجاعة قاسية قد تحدث، فاستجاب لهم صاحب الخلق العظيم ، ورغَّب ثمامة أن يفعل ذلك، ففعل بعد أن أذن له النبى " [2].

فهل هناك وجه للمقارنة بين تسامح النبى مع قريش؟! وهى التى فعلت برسول الله ما فعلت، ومحاولة قتله عدة مرات، ومحاصرته ثم كانت هذه المقاطعة الشهيرة التى عاش رسول الله وأصحابه وآل بيته في عزلة تامة عن المجتمع المكى ثلاث سنوات، لا بيع ولا شراء، ولا طعام،.... وغير ذلك مما هو ثابت في كتب السيرة..

ولكن من ذا الذى يستطيع أن يقارن ذروة التسامح بذروة العنت والقسوة والغلظـة؟!.

- ليس هذا فحسب، بل إن رسول الله " علم أن قريشا بمكة تعانى من ضائقة اقتصادية عقب صلح الحديبية، فأرسل إلى أبي سفيان زعيم مكة خمسمائة دينار إسهاماً منه، ، في تخفيف هذه الضائقة الماليـة " [3]. ولا يخفى على أحد ما كان يفعله أبو سفيان برسول الله وبالمسلمين قبل أن يعلن إسلامه.

إن رسول الله ، الذى بلغ من تسامحه أنه لا يقبل أن يبيت إنسان - أى إنسـان - شبعان وجاره جائع وهو يعلم، سواء كان مسلما أو غير مسلم، لا يمكن أن يقارن أبدًا بما تتعمده أحيانا بعض الدول الكبرى في عصرنا الحالى - كما تطالعنا بعض المجلات المتخصصة - حيث إنهم " يحرقون فائض القمح عنهم، حتى لا ينخفض سعره، ويلقون فائض الزبد في المحيط، ويرصفـون الشوارع بفائض القطن...! "

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان، ج ٢، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢١٣.

(٢) أحمد شلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٥٦، ٥٧.

(٣) المرجع السابق: ص ٥٦.

[1].٢ - بينما كان رسول الله بمسجده بالمدينة المنورة، وفد عليه ، وفد نصارى نجران، فدخلوا عليه المسجد بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجده، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله " دعوهم " فاستقبلوا المشرق، فصلوا صلاتهم [٢].

فقد بلغ من تسامح النبى ، أن سمح لهم بدخول المسجد، وأن يصلوا فيه صلاتهم، بل إنه ، جادلهم بالتى هى أحسن، وأقام عليهم الحجة بما أوتى من جوامع الكلم، وملكة الإقناع التى وهبها الله سبحانه وتعالى له.. ورغم ذلك عادوا إلى بلادهم سالمين دون أن يعلنوا إسلامهم.

- فأين هذا الإكراه الذى يدعيه البعض؟! وأين العنف الذى يدعيه البعض الآخر؟!

٣ - تسامح حتى مع من يتعمد قتله :

فبعد صلح خيبر، وبعد أن اطمأن رسول الله ، أهدت له " زينب بنت الحارث " اليهودية، امرأة سلام بن مشكم، شاة مصلية (مسمومة)، وقد سألت أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ؟ فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها: فلما وضعتها بين يدى رسول الله تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ، فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفظها، ثم قال: " إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم "، ثم دعا بالمرأة، فاعترفت. فقال: ما حملك على ذلك "؟ قالت: بلغت من قومى ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكا استرحت منه، وإن كان نبيا فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ، ومات بشر من أكلته التى أكل " [٣].

أليس عجبا أن يتسامح النبى مع من يتعمد قتله مع سبق الإصرار والترصد؟! ولكنه التسامح النبوى الذى يعلو فوق كل تسامح!

---

(١) عبد الصبور مرزوق: خلاص البشرية بالإسلام فكيف وبمن؟، مجلة منبر الإسلام، السنة (٦٠)، العدد (٥)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، يوليو - أغسطس ٢٠٠١، جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ، ص ٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ط٨، ج٣، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥، ص ٦٢٩.

(٣) ابن هشام، أبى محمد عبد الملك: سيرة النبى ﷺ، ج٣، مرجع سابق، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

وقد ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى هذه القصة بنفس المضمون، ولكنه نسبها إلى جماعة من اليهود أيضا بعد صلح خيبر، ودار حوار طويل بينهم وبين رسول الله ، اعترفوا في نهايته بأنهم جعلوا في الشاة سما.. فقال لهم النبى : " ما حملكم على ذلك؟ " قالوا: أردنا إن كنت كاذبا استرحنا منك، وإن كنت نبيا لم يضررك " [1].

٤ - حتى الدعاء على من آذوه في أشد يوم مر عليه لم يصدر منه:

- أخرج البخارى في صحيحه: عن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت للنبى : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: " لقـد لقيـت من قومـك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال. فلم يجبنى إلى ما أردت. فانطلقت وأنا مهموم على وجهى، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسى فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادانى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وماردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت منهم. فنادانى ملك الجبال فسلم علىَّ، ثم قال: يـا محمد! فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؛ فقال النبى : " بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئـا " [2].

وكان من ثمار هذا التسامح العظيم، أن تحقق رجاء النبى ، ودخل الناس فيما بعد في دين الله أفواجا.

- وقد بلغ من تسامح النبى ، ورفقه اللا محدود، أنه تسامح مع " عبد الله بن أبى " والذى كان من أشد المنافقين خطرا على الإسلام، فقد روى أن " عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه، أتى رسول الله فقـــال: يـا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه، فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، فقال رسول الله " بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا " [3].

وقد كان هذا التسامح والرفق أبعد أثرًا من العقوبة، " فقد كان عبد الله ابن أبى بعد ذلك إذا أحدث الحدث يعاقبه قومه، ويعنفونه ويشعرونه أن حياته بعض هبات محمد له "

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج٢، بيروت: دار صادر: بيروت للطباعة والنشر، ١٩٥٧، ص ١١٥، ١١٦.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان، ج ١١٧٣/٢، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) ابن كثير الدمشقى: تفسير القرآن العظيم، مج ٤، مرجع سابق، ص ٥٨١.

[1]، ولم يكتف النبى بذلك، بل إن عبد الله بـن عبـد الله بن أبى، لما طلب من رسول الله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، لم يرفض النبى ، كما أنه صلى عليه رغم أن الله سبحانه وتعالى نهاه عن ذلك!

- أخرج البخارى في صحيحه، عن ابن عمر رضى الله عنه، قال: لما توفى عبد الله، جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه. ثم سأله أن يصلى عليه. فقام رسول الله ، ليصلى، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله . فقال: يا رسول الله! تصلى عليه وقد نهاك ربك أن تصلى عليه؟ فقال رسول الله : " إنما خيرنى الله فقال - استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة - وسأزيده على السبعين " قال: إنه منافق. قال: فصلى عليه رسول الله.

٥ - تسامح لا محدود ولكن ليس على حساب الرسالة العالمية:

فبعد فتح مكة، جاءت الوفود الكثيرة من أنحاء الجزيرة العربية لتعلن إسلامها طواعية دون إكراه - كما هو معلوم - فكان النبى يكرم هذه الوفود كرمًا شديدًا، ويتلطف معهم، ويحسن مقابلتهم، إلا أنه لم يكن يسمح قط بأن يتعارض هذا التسامح مع العقيدة الإسلامية، سواء من ناحية الجوهر أو المظهر.

- فمن ناحية الجوهر: فقد " أراد وفد ثقيف أن يعفيهم النبى من أداء الصلاة، فأبى عليهم ذلك كل الإباء، فقبلوا أن يؤدوا الصلاة على أن يترك لهم (اللات) لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى عليهم، فقالوا: سنة، فأباها عليهم، فما برحوا يسألونه حتى سألوه شهرًا واحدًا، فأبى أن يدعها لهم أجلا مسما.

فلما رأوا إصراره على هدمها سألوه أن يكفيهم مؤنة هدمها بأنفسهم، فقال : " أما كسر أوثانكم بأنفسكم فسنعفيكم منه، وأما الصلاة فلا خيـر في دين لا صلاة فيه " [2].

- أما من ناحية المظهر: والتقاليد الإسلامية، فلم يتجاوز النبى أيضا عن هذه الهفوات، " فقد جاءه وفد كنده في ثمانين راكبا، فدخلوا على رسول الله مسجده، وقد رجلوا (مشطوا) جممهم (مجتمع رأس الشعر) وتكحلوا وعليهم جبب الحبرة، وقد كففوها بالحرير، فلما رآهم رسول الله في هذا المظهر الناعم قال لهم: " ألم تسلموا "؟ قالوا: بلى. قال: فما بال هذا الحرير في أعناقكـم؟ فشقوه وطرحوه عن أجسامهم " [3].

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٥، ص ٣٥٥.

(٢) ابن هشام، أبى محمد عبد الملك: سيرة النبى ، ج ٤، مرجع سابق، ص ١٣٩، ١٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٤.

رابعاً: أنه المثل الأوفى للقرآن الكريم في الوحدة الإنسانية:

إن رسـول الله هـو المثل الأوفى للقرآن الكريم في كل تعاليمه، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل طاعة النبى من طاعته سبحانه وتعالى.

ولذلك نجد أن النبى هو الذى وضح لنا كيف تُؤدى الصلوات جميعها، وكيف تُؤدى مناسك الحج والعمرة.. إلى غير ذلك من أنواع التشريع.

وإذا كان القرآن الكريم، قد أكد في آيات كثيرة - تصريحا لا تلميحا - على مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة في أوفى معانيها، حتى أننا لا نجد في القرآن الكريم كله " يأيها العرب " مرة واحدة، ولكن القرآن الكريم يذكر كلمة " الناس " في مائتين وإحدى وأربعين آية

وقد أحسن (العقاد) حين قال " فمعجزة من المعجزات الإلهية أن تجئ الدعوة إلى رب العالمين من صحراء لا تعرف غير الفوارق بين العصبيات والأنساب... ومعجزة مثلها أن يجئ من تلك الدعوة حق الإنسان الذى يرفعه عمله ولا يرفعه نسبه، أيا كان هذا النسب بين الأعراق والأقوام.. كما أن المساواة، والمسئولية الفردية، والشورى هى العناصر الثلاثة التى نادى بها الإسلام لأول مرة في تاريخ الإنسان " [١].

١ - ففى يوم الفتح الأعظم، يعبر النبى ، عن هذا المعنى أبلغ تعبير، ليعلن للناس جميعاً أنهم فروع شجرة واحدة، وأساس الصلة بينهم التعارف والتعاون، حين قال: " إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب.

٢ - ورسول الله ، يؤكد مبدأ المسئولية الفردية، في أبهى صوره، وأن كل امرئ بما كسب رهين، مهما كانت درجة قرابته منه ، حين قال، كما أخرج البخارى في صحيحه:

- عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قام رسول الله حين أنزل الله عز وجل - وأنذر عشيرتك الأقربين -، قال: " يا معشر قريش! " أو كلمة نحوها: " اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا، يا بنى عبد مناف! لا أغنى عنكم من الله شيئا. يا عباس بن عبد المطلب! لا أغنى عنك من الله شيئا. ويـا صفية عمة رسول الله! لا أغنى عنك من الله شيئا. ويا فاطمة بنت محمد! ، سلينى ما شئت من مالى، لا أغنى عنك من الله شيئا " [٢].

---

(١) عباس محمود العقاد: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، القـاهرة: مطبعـة مصر، ١٩٥٧، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج ١٢٣/١، مرجـع سـابق، ص ٥٢.

٣ - وإذا ما نظرنا إلى الوحدة الإنسانية من الناحية النوعية - كرجل وامرأة - نجد أنه في الوقت الذى " كانت بعض المجامع الكنسية في القرن السادس الميلادى تبحث.. " هل المرأة إنسان أو حيوان؟ " [١]. وكان العرب يئدون بناتهم. يأتى رسول الإنسانية ليعلن وحدة الإنسانية، وكرامة الإنسان أيا كان نوعه، وأن كرامته ذاتية أصيلة، فالرجل إنسان، والمرأة إنسان، والعبد إنسان.. إنسانية واحدة ترجع إلى أصل واحد.

- عن عائشة رضى الله عنها، أن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة، قلت اجلسى حتى يأتى النبى ، فجاء رسول الله ، فأخبرته، فأرسل إلى أبيها فدعاه فجعل الأمر إليها. فقالت يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم أَ للنساء من الأمر شئ؟ - بهمزة الاستفهام ولام الجر - [٢]. فهذا مستوى رفيع في كرامة الإنسان وحريته وحقوقه.. لم ترتفع إليه الإنسانية قط قبل رسول الله.

٤ - ومن المواقف التطبيقية التى تؤكد أن رسول الله يحترم النفس الإنسانية على اختلاف عقيدتها وجنسيتها، ما أخرجه البخارى في صحيحه، عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد، قالا: إن النبى مرت به جنازة فقام، فقيل له إنها جنازة يهودى، فقال: " أليست نفسا! " [٣]. - وهذه الكلمة " أليست نفسا " وإن كانت صغيرة المبنى، إلا أنها كبيرة المعنى، فهى " تدل على مقدار ما يراه نبى الإسلام من المساواة بين الناس جميعا بلا فرق في عقائدهم وأجناسهم، وهى سماحة كذلك لا نجدها إلا في الإسلام إذا فهمناه على وجهه الصحيح " [٤].

ولعل هذه الكلمة الموجزة البليغة، ينطبق عليها قول (العقاد) في تقديمه لعبقرية الصديق رضى الله عنه حين قال " ولعل حادثا صغيراً يستحق التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته، بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تجئ عرضا في بعض المناسبات تتقدم على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ[٥].

---

(١) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ج١، مرجع سابق، ص ٣٨٧.

(٢) النسائى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن على بن بحر: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى، مج ٣، ج ٦، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧، ص٨٧.

(٣) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج ٥٦٥/١، مرجع سابق، ص ١٩٦.

(٤) محمد يوسف موسى: الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص ٢٧١.

(٥) عباس محمود العقاد: عبقرية الصديق، بيروت: المكتبة العصرية (د - ت)، ص ٩.

٥ - لقد بلغ من احترام رسول الله للوحدة الإنسانية، أنه لم يكتف بنهيه عن العصبية، والتحذير منها تحذيرًا شديدًا فحسب، بل أخبر بأن أهل العصبية والتفاخر بالآباء والأنساب، أهون على الله عز وجل من دويبة تنشأ في القاذورات.

- فعن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله : " إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، ليد عن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنـم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن " [(١)].

- ورسول الله هو القائل: " عن جبير بن مطعم أن رسول الله ،قال: " ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية " [(٢)].

وذكر أحمد ديدات - نقلا عن مجلة تايم الأمريكية ١٥ يوليو ١٩٧٤ - رأى العالم النفسانى (جولز ما سرمان) من جامعة شيكاغو - وهو غير مسلم - حيث قام بعدة أبحاث عن أعظم القادة في التاريخ، وكان قد وضع معايير دقيقة، على القائد العظيم أن يستوفيها جميعا. وقد خلص " ما سرمان " من أبحاثه إلى النتيجة التاليـة: " أعظم الرجال في كل العصور هو محمد ، الذى اجتمعت له المعايير والخصال الثلاث... لقد وضع هذا القائد العظيم نظاما اجتماعيا يجعل الناس تعيش في أمان وسلام، نظاما خاليا من الرغبات الشخصية والجشع والتمييز العنصرى والقبلية، كما قدم مجموعة من المعتقدات تتسم كلها بروح الأخوة الإنسانية " [(٣)].

- أما (سبرل)، عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا بالنمسا ١٩٢٧، فيقول: " إن البشرية كلها لتفخر بانتساب رجل كمحمد إليها، فإنه على أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنا، أن يأتى بتشريع سنكون - نحن الأوربيون - أسعد ما نكون لو وصلنا إلى قمته بعد ألفى سنة " [(٤)]. ويقول غاندى زعيم الهند الراحل: " لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى إلا أن يطأطئ الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا لمصلحة البشرية كلها[(٥)].

---

(١) أبو داود: مرجع سابق، مج ٢، ج ٤ / ٥١١٦، ص ٣٣١.

(٢) المرجع السابق: ص ٣٣٢.

(٣) أحمد ديدات: محمد رسول الله أعظم العظماء، مرجع سابق، ص ١٦، ١٧.

(٤) كمال أبو اليزيد شبارة: محمد رسول الله ﷺ في نظر كتاب الغرب، مجلة منبر الإسلام، السنة(٦٤) العدد (٢)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٢٦هـ، مارس ٢٠٠٥، ص ٦٩.

(٥) المرجع السابق، ص ٦٩.

خامساً : أن الله سبحانه وتعالى وصفه بالسراج المنير:

جعـل الله سبحانـه وتعالى محمـد نورًا، وجعل كتابه الذى أنزل إليه نـوراً، وجعل دينه نورًا.

والنور هنـا محمـد رسـول الله بدليـل عطـف الكتاب عليه كتابه الذى أنزل إليه:

ويقول صاحب كتاب " الوحى المحمدى "، " فمصباح الروح المحمدية، في زجاجة فطرته الزكية، المتلألئة كالكواكب الدرية، يوقد من شجرة مباركة قدوسية، زيتونة لا شرقية ولا غربية، بل هى إلهية علوية، أشبه بما عرف الناس في عصرنا بالكهربائية يكاد زيت كمالها الفطرى يضئ بذاته ولو لم تمسسه نار، فمسه نور الله بما أوحاه إليه، فاشتعل بما عم العالم من الأنوار " [(١)].

واستعداداً للنور الذى كان ينزل على رسول الله من ربه، كان يقول في دعائه - كما أخرج البخارى في صحيحه:

- عن ابن عباس رضى الله عنه، أن رسول الله ، كان يقول في دعائه: " اللهم اجعل في قلبى نورًا، وفى بصرى نورًا، وفى سمعى نورًا، وعن يمينى نورا، و عن يسارى نورًا، وفوقى نورًا، وتحتى نورًا، وأمامى نورا، واجعل لى نورًا " [(٢)].

والله سبحانه وتعالى قد تعهد وتكفل بأن يتم هذا النور للعالم أجمع، وشبه من يريد أن يطفئ هذا النور، كما يريد أن يطفئ ضوء الشمس، أو نور القمر - مثلا - بنفخة من فمه، وهذا بطبيعة الحال وهم ومحال.. بل هو غرور وزيف.

* * *

سادساً: تعدد أسماء النبى ، ومنها الشاهد:

- فقد أخرج البخارى في صحيحه، عن جبير بن مطعم رضى الله عنه، قال: قال رسول الله : " لى خمسة أسماء، أنا محمد وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب " [(٣)]. ويلحق بهذه الأسماء... " الشاهد، والمبشر، والبشير، والنذير... "

---

(١) محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى، القاهرة: مطبعة نهضة مصر، ١٩٥٦، ص ١١٦.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج ٤٣٧/١، مرجـــع ســـابق، ص ١٤٦.

(٣) المرجع السابق: ج١٥١٧/٣، ص ١١٠.

وروى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: " قال رسول الله : " يجئ النبى[1].
يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم هذا؟ فيقولون:
لا. فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته،
فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومـه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟
فيقولون: جاءنا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا.* * *

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج١، مرجع سابق، ص ٨٧.

الفصل الثاني

محمد المثل الكامل للسلام والعلاقات الدولية

أولاً: المثل الكامل للسلام :

١ - كلمة " السلام " يتنفسها المسلمون ليلا ونهارا:

من الحقائق الثابتة التى لا تخفى على أحد، أن القرآن الكريم أكد أن الإسلام والسلام متلازمان ويلتقيان معا في وجوب توفير الأمن والاطمئنان والتعاون والمحبة بين الناس جميعا، ولأهمية " السلام " ومكانته العالمية، فقد وردت كلمة السلام في القرآن الكريم ما يقرب من " خمس وخمسين مرة " [1]، تؤكد أن الله سبحانه وتعالى هو السلام، والإسلام هو السلام، وشريعته سلام، ومنهجه سلام، وكل حركة من حركات المؤمن اليومية سلام، وتحية الدنيا سلام، وتحية الآخرة سلام، وتحية الملائكة سلام، وأطيب وخير الكلام في الجنة سلام، والجنة هى دار السلام...

ولذلك نجد أن النبى هو المثل الكامل للقرآن الكريم في حبه للسلام، وإيثاره للسلام، وفى نشره للسلام، وفى دعوته للسلام، ولا يمكن لإنسان - مهما أوتى من علم - أن يغطى هذا الجانب من سيرة رسول الله ، ويكفى أن مسلماً واحدا، في يوم واحد - إذا صلى الصلوات الخمس والسنن المؤكدة وغير المؤكدة - أن ينطق بكلمة " السلام " أكثر من سبعين مرة. فما بالنا بملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها!

٢ - نماذج تطبيقية وعملية من السيرة النبوية العطرة: -

ونظراً لأن أحاديث النبى أشهر من أن تذكر في السلام، فإننى سوف استشهد ببعض النماذج التطبيقية والعملية من سيرة رسول الله ، نرى من خلالها، كيف كان النبى المثل الكامل للسلام، سواء قبل البعثة أو بعد البعثة: -

١/٢ وقفة تأمل مع باب بنى شيبة (قبل وبعد البعثة):

إنها حقا وقفة تأمل وعجب ودهشة مع باب بنى شيبة، المعروف (بباب السلام) وهذا الموقف لم يلتفت إليه إلا أقل القليل، فقد لفت نظر العالم " الدكاترة مارتن شتاينبك "، أستاذ الفلسفة بجامعة ألمانيا، والمولود في جنوب ألمانيا عام ١٩٤٥، وسمى بهذا الاسم لأنه حصل على ثلاث درجات في الدكتوراة، كلها تبحث عن الحقيقة التى لم يصل إليها إلا أثناء مناقشته الدكتوراة الثالثة، ثم أسلم بعد ذلك، بل إن هذا الموقف كان أحد الأسباب الرئيسية في إسلامه.

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سابق، ص ٣٥٥، ٣٥٦.

بل إنه أقسم قائلا: " لو أن محمدا بيننا الآن لحل مشكلات العالم في جلسة واحدة ".. فقد حقن دماء بنى قومه في قصة وضع الحجر الأسود بحكمة بالغة، وساد السلام بعد أن كادت الحرب تقوم بينهم " [1].

ومعروف أن البيئة العربية في ذلك الوقت، كانت من أكثر البيئات تعقيدا، فكلمة واحدة قد تثير حربا، وجرح كرامة قد يؤدى إلى ويلات ودمار، وعصبية عارمة، وقسوة لا تحدها حدود، وعدم انضباط... وقد نُقل عن ابن خلدون في العرب " أنهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم البعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم " [2].

وقد روت كتب السيرة أن " القبائل من قريش جمعت الحجارة لبناء الكعبة، كل قبيلة تجمع على حدة، ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه (الحجر الأسود) إلى موضعه دون الأخرى. حتى تحالفوا وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنـة، فسموا بذلك لعقة الدم، فمكثت قريش على ذلك أربع ليالى أو خمسا، فتشاوروا.... فقال أبو أمية بن المغيرة: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا فكان أول داخل هو رسول الله ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال : " هلموا إلى ثوبا " فأتى به وأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال " لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب.. ثم ارفعوه جميعا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه " [3].

وتكاد تجمع كل الروايات أن رسول الله دخل في هذا اليوم من باب بنى شيبة، بل إنهم هم الذين أشاروا إلى هذا الباب. فقد ذكر البلاذرى وغيره، أنهم حين قالوا " اجعلوا بيننا أول من يدخل من هذا الباب، أشاروا إلى الباب الذى نعرفه ببنى شيبة " [4].

---

(١) أحمد حامد: لماذا أسـلم هؤلاء، مجلة منبر الإسـلام، السـنة (٦٤)، العدد (٨)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، شعبان ١٤٢٦ هـ - سبتمبر ٢٠٠٥، ص ٩٦.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسـلام؛ يبحث عن الحياة العقلية في صـدر الإسـلام إلى آخر الدولة الأموية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٠، ص ٣٢.

(٣) ابن كثير، إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى: البداية والنهاية، مج ١، ج ٢، القاهرة: دار الفجر للتراث، ٢٠٠٤، ص ٣٤٥، ٣٤٦.

(٤) البلاذرى، أحمد بن يحيى: أنسـاب الأشـراف، ج١، القـاهرة، دار المعـارف، ١٩٥٩، ص١٠٠. - وأيضا: البداية والنهاية، مرجع سابق، مج٣، ج٥، ص ١٧٤.

كما أن هذا الموقف الذى له من الدلالات الكثير، لم يمر على " العقاد " مرور الكرام، ولكنه ذكر أن هذا الأمر من " معضلات الشقاق قبل الرسالة، فأشار فيه النبى بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والارتضاء، فأشـار بالـرأى الذى لا رأى غيره، لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول، فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه، وأشرك كل زعيم في طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس، أن يقيمه بيده حيث كان، وأن ينسلف (يستبق) الدعوة وهى مكنونة في طوايا الزمان " [١].

استدلال موفق من البيهقى:

هذا قبل البعثة، أما بعد البعثة، فقد لفت هذا الموقف العجيب نظر البيهقى - رحمه الله - حين استدل على استحباب دخول النبى المسجد الحرام يوم فتح مكة من (باب بنى شيبة). فمن رواية مكحول أن النبى " لما دخل مكة رفع يديه وكبر وقال: " اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام، اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وبرا ". ثم دخل المسجد من باب بنى شيبة، وخرج من باب بنى مخزوم إلى الصفا. وقال البيهقى وهذا مرسل جيد، واستدل على استحباب دخول المسجد من باب بنى شيبة، بما حدث يوم اختلافهم فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، فاتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب، فدخل رسول الله ، من باب بنى شيبة [٢].

- أليس هذا الحدث - الذى كان سببا في إسلام البعض، ولفت نظر علماء أجلاء - يدل دلالة قاطعة على أن رسول الله أوفى مظهر للسلام؟!!

* * *

٢/٢ حلف الفضول وثناء النبى :

فقد روى أنه قد " تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه، وكان حلفهم عنده بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، فتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا كانوا معه، وكانوا على من ظلمه حتى يرد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ٦٩، ٧٠.

(٢) ابن كثير، إسـماعيل بن كثير القرشـى الدمشـقى: البداية والنهاية مج ٣، مج ٥، القاهرة، مرجع سابق، ص ١٧٣، ١٧٤.

وقد أثنى على هذا الحلف النبى ثناءً حسنا بعد البعثة، لأنه يدعو إلى نصرة المظلوم ونشر السلام والمحبة بين الناس. فقد روى عن طلحة ابن عبد الله بن عوف الزهرى، أن رسول الله قال: " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دُعىَ به في الإسلام لأجبت " [1].

٣/٢ - النبى يُغير اسم حرب إلى سلام:

لقد بلغ من حرص رسول الله ، أنه غيَّر الأسماء المنفرة والتى تحمل معانى القسوة والغلظة، فقد ذكر أبو داود - بدون أسانيد للاختصار - أن رسول الله : غير اسم شهاب فسماه هشاما، وسمى حربا سلما... وأرضا تسمى عفرة سماها خضرة، وشعب الضلالة سماه شعب الهدى " [2].

٤/٢ لواء النبى أبيض يوم فتح مكة:

ومما له دلالة قوية على إيثار النبى للسلام؛ حتى من ناحية المظهر، أن لواء النبى كان لونه أبيض يوم فتح مكة، وهو لون يرمز إلى السلام، رغم أنه صلى الله دخلها في عشرة آلاف مسلم (كما سنبين فيما بعد). فعن جابر رضى الله عنه: " أن النبى كان لواؤه يوم دخل مكة أبيض " [3].

٥/٢ المنُّ على ابنة حاتم الطائى لأنه كان يفشى السلام:

لقد كان حب حاتم الطائى لمكارم الأخلاق - ومنها إفشاء السلام - سببا جعل رسول الله يخلى عن ابنته، ويطلق سراحها. " فلما أُتى بسبايا طئ وقفت جارية.. فقالت: يا محمد إن رأيت أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب، فإنى ابنة سيد قومى، وإن أبى كان يحمى الذمار (أى يحمى الأهل والعرض)، ويفك العانى ويشبع الجائع، ويكسو العارى، ويقرى الضيف، ويطعم الطعام، ويفشى السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم طئ، فقال رسول الله : " يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه، خلوا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق " [4].

---

(١) المرجع السابق، مج ١، ج٢، ص ٣٣٤، ٣٣٥.
(٢) أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستانى الأزدى: سنن أبى داود، مج ٢، ج ٤، مرجع سابق، ص ٢٨٩.
(٣) المرجع السابق، مج ٢، ج٣، كتاب الجهاد، ص ٣٢.
(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، مج ٣، ج٥، مرجع سابق، ص ٧٦.

٦/٢ ميثاق (كتاب) المدينة أرقى صورة لتقنين السلام:

كان النبى ، أول عهده بالمدينة المنورة حريصا أشد الحرص على نشر السلام، بل إن ما صنعه النبى يعتبر آية من آيات الإعجاز.

فمن يستطيع أن يربط بين هذه العناصر المتنافرة التى لا يربطها نظام ولا وحدة ولا وفاق؟! ومن الذى يمكن أن يؤلف بين هذا الشتات من العقائد المختلفة؟!

فقد كان اليهود في المدينة - وهم أهل كتاب - يتألفون من ثلاث قبائل (بنى النضير، وبنى قريظة، وبنى قينقاع)؛ وكل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر. وكان فيها العرب - وهم مشركون - يتألفون من قبيلتى الأوس والخزرج، وكانت كل قبيلة مقسمة إلى بطون وعشائر، وكل عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال، وفوق هذا لم يكن العرب واليهود على وفاق دائم، بل لم يكن العرب أنفسهم على وفاق بعضهم مع بعض، وكذلك اليهود، ولما أسلم الأنصار من الأوس والخزرج، وهاجر إلى المدينة فريق من مسلمى قريش، ظهر في المدينة عنصر جديد هو " عنصر المسلمين " وهو عنصر منافس، لا تنظر إليه العناصر الأخرى بعين الرضا والمودة..[١].

فماذا صنع رسول السلام ؟!

إن رسول الله ، يعلم تمام العلم، أنه لا يمكن أن تقوم للأمن قائمة، في بقعة من الأرض إلا إذا ساد فيها روح المحبة والسلام، وهذا أول ما بدأ به النبى عند مقدمه المدينة مباشرة، فتوجه في صلاته إلى بيت المقدس نحو ستة عشر أو سبعة عشر شهرا، كما أخرج البخارى في صحيحه، من حديث البراء بن عازب رضى الله عنه، قال: " كان رسول الله صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرا... " [٢].

ووضع النبى مبادئ وأصول السلام، في وثيقة تعتبر هى الأرقى تقنيناً في تاريخ الإنسانية لضمان ودوام السلام والتراحم والحب والإخاء بين الجميع، فكتب كتابا (وثيقة) بين المهاجرين والأنصار؛ بين فيه ما يجب عليهم تجاه بعضهم البعض، من التعاون والتكافل والتناصر والأخذ على يد الظالم، بحيث جعلها أُخَّوة تعلو فوق أُخُّوة النسب، وفى هذه الوثيقة، وادع اليهود وعاهدهم، فشرط لهم أن يكونوا آمنين على دمائهم وأموالهم ومواليهم، وأن يكونوا أحرارا في عقائدهم، واشترط عليهم أن يكونوا مع المسلمين يدا واحدة على من يحارب يثرب، وأن ينفقوا مع المسلمين ماداموا محاربين، وعلى اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

---

(١) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ج٣، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان، ج٣٠٢/١، مرجع ســـابق، ص١٠٥.

كما اشترط على المشركين ألا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن، وألا تجار قريش ولا من نصرها، وأن بينهم النصر على من حارب يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم. كما تضمن الميثاق حرية العقيدة، وحرية الرأى، وحرية الهجرة والإقامة، وحرمة النفس، وحرمة المال، وحرمة الجوار والوطن، وكفل نصرة المظلوم ومقاومة المعتدى، وشدد في تحريم البغى والفساد وإيواء الباغين والمفسدين، و فتح باب الصلح لمن أراده من المسلمين وغير المسلمين، ودعا الجميع إلى التعاون على البر دون الإثم، وجعل الاحتكام فيما يكون بين أهل هذه الصحيفة من خلاف، إلى الله وإلى رسول الله.

(الوثيقة المحمدية الخالدة)

كتاب (صحيفة) المدينة:

كتب رسول الله ، كتابا بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، و اشترط عليهم: - وهذا نص الكتاب (الصحيفة): -

" بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبى ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم:

إنهم أمة واحدة من دون الناس.

المهاجرون من قريش على ربعتهم [١] يتعاقلون بينهم [٢]، وهم يفدون عانيهم [٣] بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) ربعتهم: الحال التى هم عليها.

(٢) يتعاقلون: يدفعون دياتهم بعضهم مع بعض.

(٣) عانيهم: أسيرهم.

وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

وإن المؤمنين لا يتركون مفرحا [١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة [٢] ظلم، أو إثم، أو عدوان، أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعا، ولو كان ولد أحدهم.

ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافرا على مؤمن.

وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كان غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا.

وإن المؤمنين يبىء [٣] بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن.

وإنه من اعتبط [٤] مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود [٥] به إلا أن يرضى ولى المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

---

(١) المفرح: المثقل بالدين والكثير العيال.

(٢) دسيعة: عظيمة.

(٣) يبىء: من البواءة وهى المساواة.

(٤) اعتبط: قتل بلا جناية.

(٥) قود: قصاص.

وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله .

البنود الخاصة باليهود:

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين.

وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ [١] إلا نفسه، وأهل بيته.

وإن ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى جُشم مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف، وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف؛ إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

وإن جفنة بطن من ثعلب كأنفسهم.

وإن لبنى الشُطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الإثم.

وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم.

وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ، وإنه لا ينحجر [٢] على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم، وإن الله على أبر هذا.

وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم.

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله .

---

(١) لايوتغ: لا يهلك.

(٢) لا ينحجر: لا يلتئم.

وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره، وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه.

وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب في الديـن، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم.

وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة.

وإن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه.

وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.

وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله [(١)].

حقا إنها لوثيقة (صحيفة) آية من آيات الإعجاز في تقنين السلام وضمان استمراره بين الجميع، وهى نموذج فريد لم يصل العالم بعد جهاده الطويل ألوفا من السنين إلى خيال منها.

٧/٢ - صلح الحديبية أصدق صورة لإيثار السلام:

إن المتأمل في صلح الحديبية يجد أنه أصدق صورة لإيثار السلام من جانب رسول الله ، ورغبة أكيدة في البعد - كل البعد - عن القتال، وذلك من بداية هذه الرحلة إلى نهايتها.

وفى كل خطوة خطاها النبى ، وفى كل كلمة قالها، لدليل قاطع على إيثار السلام والرغبة الأكيدة فيه من جانبه بصفة خاصة. وهذه هى أهم الأدلة التى تؤكد ذلك:

أن رسول الله خرج من المدينة في ذى القعدة سنة ست بمن معه من المهاجرين والأنصار.. وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة، ليعلم الناس أنه إنما خرج زائرا لهذا البيت ومعظما له، وأنه لا يريد حربا يريد سلاما [(٢)]. ولاشك أن هذا المظهر يدل دلالة قاطعة على أن النبى كان حريصا كل الحرص على السلام، فالإحرام والهدى والتلبية.. كل ذلك يدل على السلم والمسالمة.

---

(١) ابن هشام: سيرة النبى ¤، مرجع سابق، ج2، ص ٩٧ - ١٠٠.

(٢) ابن هشام: ج٣، مرجع سابق، ص ٢٢٩.

ب - أن رسول الله عندما شعر أن قريشا تهيأت لحربه، وستحول بالقوة بينه، وبين زيارة البيت، وأرسلت طلائعها تعترض طريقه، سلك النبى طريقا آخر وعرا، ليتفادى القتال.

وفى ذلك يقول ابن هشام: " فأمر رسول الله فقال: " اسلكوا ذات اليمين بين ظهرى الحمش، في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة "، قال: فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش قترة (غبار) الجيش قد خالفوا عن طريقهم، رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله ، حتى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته، فقالت الناس: خلأت الناقة، قال: " ما خلأت وماهو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ". ثم قال للناس: " انزلوا "؛ قيل له: يا رسول الله: ما بالوادى ماء ننزل عليه، فأخرج سهما من كنانته، فأعطاه رجلا من أصحابه، فنزل به قليب من تلك القُلُب. فغرزه في جوفه، فجاش الماء بالرواء (الرى) حتى ضرب الناس عنه بعطن " [1].

إن عبارة رسول الله ، التى قالها: " لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " لتدل دلالة قاطعة على صدق رسول الله ورغبته الأكيدة في إيثار السلام، مهما يجد من صلابة وعناد من جانب قريش، أو حمية وغضب من جانب الصحابة، وكأنما كانت هذه العبارة كانت ممزوجة بروح الوحى الإلهى، وأن رسول الله ينظر بعين الغيب إلى ما وراء هذا الصلح من ثمرات كثيرة.

ج - لم يتألم المسلمون قط، ولم يعارضوا النبى في يوم من الأيام كما عارضوه في صلح الحديبية، فقد شعر المسلمون في ذلك اليوم بكل معانى الغبن والمهانة، وما كان في شروط هذا الصلح من الإجحاف والتعنت - من الناحية الظاهرية - والتى قبلها النبى - دون استشارة أحد - بكل تساهل وملاينة...

شروط صلح الحديبية:

دعا رسول الله ، على بن أبي طالب رضى الله عنها، فقال: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل بن عمرو: لا أعرف هذا، ولكن اكتب: باسمك اللهم، فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم، فكتبها، ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله اكتب:

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣١.

" هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة(صدور منطوية على ما فيها)، وأنه لا إسلال (السرقة خفية) ولا إغلال (خيانة)، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم، وأنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل، خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثا، معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، لا تدخلها بغيرها " [١].

فقد ذكر - ابن هشام - هذا الموقف بقوله.. " فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: " بلى "، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال " بلى "، قال " أوليسوا بالمشركين؟! قال: " بلى "، قال: فعلام نعطى الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر، الزم غرزه (أمره)، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى رسول الله فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: " بلى " قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: " بلى " ، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: " بلى " ؛ قال: فعلام نعطى الدينة في ديننا؟ قال: " أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى "! فكان عمر يقول: ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق، من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرا " [٢].

- ماذا كانت نتيجة هذه الصورة الصادقة والمشرقة لإيثار السلام رغم كل ما حدث؟!

يقول الزهرى: " فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن الناس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. والدليل على قول الزهرى - كما يقول ابن هشام - أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف " [٣].

---

(١) المرجع السابق، ج٣، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٤٢.

ألم يكن في وسع النبى أن يقاتل في ظل هذا الإلحاح الشديد من بعض الصحابة؟!!

وماذا لو نقضت قريش هذا الصلح الذى تم بهذه الصورة، وتبرم منه الصحابة تبرما شديدا، وكان وقعه عليهم كالصاعقة؟!!

* * *

ثانياً: المثل الكامل لحسن الجوار والعلاقات الدولية:

إذا كان النبى - كما سبقت الإشارة - هو المثل الأعلى للسلام على المستوى الداخلى (داخل الجزيرة العربية)، فإنه أيضاً المثل الكامل لحسن الجوار والعلاقات الدولية مع الأمم والشعوب المجاورة بكل أجناسها وعقائدها، وأوفى مظهر للقرآن الكريم في ذلك.

ومن أرقى وأسمى نماذج العلاقات الدولية التى برزت في سيرة رسول الله ، تلك الكتب والرسائل التى بعث بها النبى إلى الملوك والأباطرة خارج الجزيرة العربية بعد صلح الحديبية، يدعوهم فيها إلى الإسلام هم وأتباعهم وشعوبهم.

وقد صاغ النبى تلك الرسائل صياغة كلها حكمة ودقة لا يرقى إلى صياغتها أحد، فالرسول يدعو ولا يهدد، ثم هو لا يقلل من مكانة هؤلاء الملوك والرؤساء، بل يكتب لهم بألقابهم، ويعترف بمكانتهم، ويقرر لهم أن سلطانهم في ظل الإسلام باق، كما أنه يؤكد أنه ليس طالب ملك ولا سلطان " ومما يلفت النظر أن النبى ، يخاطب كل ملك أو أمير حسب ظروفه الخاصة، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه.. وكان من عبقرية النبى الفذة، أنه كان يحسن اختيار مبعوثيه، فكان كل منهم يعرف لغة البلاد التى أرسل إليها، كما كانوا معروفين بالرشد والحكمة "[1].

١ - أول مبادرة دولية لرسول الله :

إن أولى المبادرات الدولية لرسول الله ، اتجهت إلى أوروبا قاصدة القسطنطينية عاصمة دولة الروم - صاحبة السيادة العليا على أوروبا في ذلك الوقت - وذلك من منطلق حسن الجوار الذى أقره وشرعه الإسلام لغير المسلمين،

---

(١) أحمد شلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ٤٤.

وكان على رأس تلك السفارة الإسلامية " دحيه الكلبى " رضى الله عنه، وهو أحد الصحابة المقربين إلى رسول الله ، وأوسعهم خبرة بشئون البيزنطيين، فهو ينتمى إلى قبيلة " كلب " التى كانت مضاربها تمتد قبل الإسلام وبعده في بلاد الشام، التى تعتبر أعظم الجسور إلى أوروبا [١].

نص الرسالة: " بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن توليت ، فإن عليك إثم الأريسيين

تعقيب على الرسالة:

من لدية القدرة على صياغة مثل هذه الرسالة الأخلاقية الموجزة والشاملة والهادفة - مهما أوتى من علم وحكمة - سوى النبى ؟!!

هل قال النبى "... فإن تولوا حاربناكم وحملنا عليكم السيوف؟!! إنما قال: ".. اشهدوا بأنا مسلمون " أى لكم دينكم ولى دين، دون إكراه أو إجبار.

هذه الرسالة الحكيمة - على صغرها - يتجلى فيها التزام النبى بأخلاق القرآن الكريم في أدب الحوار الرفيع

والتزاما أيضا بأمر الله سبحانه وتعالى له بتبليغ الرسالة التزم النبى التزاما كاملا بالحوار الدينى الهادئ - وهو أعقد الحوارات على الإطلاق - حين أشار إلى الإيمان بجميع الرسائل السابقة، مما يجعل الحوار متحررًا من الحساسية والنفور، فالمرسل إليه لديه عقيدة متأصلة ومترسخة في نفسه، فجعل النبى بذلك، الطريق مفتوحا في الحوار، والأمل منشودًا في التفاهم، فإذا لم تفلح محاولات الحوار الدينى - مثلا - في الوصول إلى نتائج، فليس معنى ذلك أن يكون هناك قطيعة مع الآخرين، فليحتفظ بمعتقده، ولكن: ".. فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون

هذه الرسالة - على صغرها - كانت لها ثمرات مباركة وطيبة، فقد علم أهل هذه البلاد - من خلال الحوار الذى دار بين هرقل وأبو سفيان - سمو رسالة النبى ، وأخلاقه العظيمة، وصفاته الحميدة، كالصدق والأمانة، والعفاف، وعدم الغدر... حتى قال هرقل لأبى سفيان "... فلئن كنت صدقتنى ليغلبن على ما تحت قدمى هاتين.. " [٢].

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى: الجوار الإسلامى مع أوروبا أسسه ومعالمه، منبر الإسلام، السنة (٦١)، العدد (٣)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ربيع الأول ١٤٢٣هـ - مايو/ يونيه ٢٠٠٢، ص ١١٠.

(٢) ابن كثير، إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى: البداية والنهاية، مج٢، ج ٤، مرجع سابق، ص٢٩٥.

كما يروى أن هرقل قال: "... يا معشر الروم إنه قد جاءنى كتاب أحمد، وإنه والله النبى الذى كنا ننتظر، ويحمل ذكره في كتابنا، نعرفه بعلاماته وزمانه، فأسلموا واتبعوه تسلم لكم دنياكم وآخرتكم، فنخروا نخرة رجل واحد، وابتدروا أبواب الدسكرة، فوجدوها مغلقة دونهم، فخافهم وقال: ردوهم علىَّ، فردوهم عليه، فقال لهم: يا معشر الروم إنى قلت لكم هذه المقالة أختبركم بها لأنظر كيف صلابتكم في دينكم.. " [1].

ومما يؤكد ذلك، ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، وما دار بين أبي سفيان وهرقل بشأن رسول الله ، حين قال في نهاية حديث طويل "... فلما فرغ (أى هرقل) من قراءة الكتاب، ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط (الأصوات المختلفة)، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابي حيث خرجنا: لقد أَمِر أمر ابن أبي كبشة، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر " [2].

لقد لفت هذا النموذج الرائع في حسن الجوار والعلاقات الدولية نظر المفكر الفرنسى (لا مارتين)؛ وهو مفكر غير مسلم، نشر كتابا في باريس عام ١٨٥٤، بعنوان " تاريخ الأتراك "، وقد ابتكر ثلاثة معايير لاكتشاف عظمة القادة على مر التاريخ (عظمة المقصد - ضآلة الوسائل - ضخامة النتائج). ويقول (لا مارتين) عند حديثه عن عظمة المقصد - أحد المعايير التى ابتكرها - " وضع محمد رسول الله المثل الأعلى الذى يجب أن يحتذى لتحقيق عظمة المقصد لإصلاح الجنس البشرى كله، ووضعه في جانب الله سبحانه وتعالى، حينما كتب هذا النبى إلى الدول المجاورة يدعوهم للدخول في دين الإسلام، مثل إمبراطور الفرس، وعظيم القبط بمصر، والنجاشى ملك الحبشة، والامبراطور هرقل في القسطنطينية، وملك اليمن... فهل يوجد مثل هذا في أى دين أو أى رسالة أخرى؟!! [3].

٢ - الرسالة الثانية:

وأما المبادرة الثانية، فكانت إلى المقوقس ملك مصر والاسكندرية، بعث بها النبى ، حاطب بن أبي بلتعة. " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم القبط.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ط١، ج١٧٧٣/٤، كتاب الجهاد والسير، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٥، ص١٣٩٣ - ١٣٩٧.

(٣) أحمد ديدات: محمد رسول الله أعظم العظماء، مرجع سابق، ص ٤٠.

وهذه الرسالة لا تقل في بلاغتها ودقتها وأهدافها وروعتها، وأخلاقها.. عن الرسالة السابقة. فإلى جانب ما ذكر من تعقيب على الرسالة السابقة، نجد أن هذه الرسالة يتجلى فيها - تبعا لظروف المرسل إليه - جانبا أخلاقيا آخر على درجة عالية من الأهمية يمكن تلخيصه فيما يلى:

أن رسول الله ، بعث بتلك الرسالة إلى المقوقس عظيم القبط أو ملك مصر والاسكندرية، ولم يبعثها إلى الحاكم الرومانى. رغم أن مصر - في ذلك الوقت - كانت تحت حكم الرومان، وهذا إن دل على شئ، فإنما يدل على أن رسول الله يعترف بالهوية القومية لأهل البلد، كما أن في ذلك إشارة إلى أن الإسلام يبغض الاستعمار والاستغلال ويميل إلى تحرير الأوطان من أى تدخل أجنبى.

وهكذا الحال في جميع الكتب والرسائل التى أرسلها النبى إلى الملوك والأمراء خارج الجزيرة العربية، حكمة ودقة في الصياغة، وعبقرية في التلميح، وأخلاق كاملة، وفطنة في الحوار، وعظمة الهدف والمقصد، وعظمة النتائج، والمثل الكامل في حسن الجوار والعلاقات الدولية؛ منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة.

ونظرا لأن نصوص الرسائل التى بعث بها النبى ، ثابتة في كتب السيرة وغيرها - كما هو معلوم - فإننى أكتفى بتحليل الرسالتين السابقتين، ولكننى أشير فقط إلى بعض ثمرات الرسائل الأخرى التى أرسلها النبى .

فقد بعث النبى (العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمى) إلى (المنذر بن ساوى) ملك البحرين، وكانت أرض البحرين من مملكة الفرس، وكان من ثمرات هذا الكتاب أن أسلم المنذر بن ساوى وجميع العرب هناك وبعض العجم. وأما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء الحضرمى، وكتب بينه وبينهم كتابا، وأحبوا أداء الجزية [(١)].

كما بعث النبى (عمرو بن العاص) إلى ملكى عمان، فأسلما، وأسلم معهما خلق كثير [(٢)].

وبعث النبى (عمرو بن أمية الضمرى) إلى النجاشى ملك الحبشة، يدعوه إلى الإسلام، فأسلم النجاشى على أرجح الأقوال [(٣)].

---

(١) البلاذرى، أبو الحســـن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البغدادى: فتوح البلدان، القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٥٩، ص ٨٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٧.

(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٦٨٩.

وبعث النبى ، أبا موسى الأشعرى، ومعاذ بن جبل إلى اليمن عند انصرافه من تبوك. وقيل بل سنة عشر من ربيع الأول، داعيين إلى الإسـلام، فأسلم عامة أهلها طوعا من غير قتال. ثم بعث بعد ذلك على ابن أبى طالب إليهم، ووافاه بمكة في حجة الوداع [١].

وبعث النبى ، جرير بن عبد الله البجلى إلى ذى الكلاع الحميرى، وذى عمرو، يدعوهما إلى الإسلام، فأسلما [٢].

كما كان من ثمرات هذه الرسائل المباركة، أن صار الإسلام له مكانة دينية وسياسية عالمية بين الدول المجاورة، وخاصة قبل فتح مكة، كما استطاع النبى أن يتعرف بحكمة كبيرة، على سياسة هؤلاء الملوك والأمراء تجاهه وتجاه الإسلام، فكانت كذلك بمثابة جس نبضهم تجاه الرسالة الخاتمة والعالمية.* * *

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص ١٢٣.

(٢) المرجع السابق، ص ١٢٣.

الفصل الثالث

فلسفة القتال في السيرة النبوية المطهرة

أولاً: مصطلحات ومفاهيم هامة

لا يخفى على أحد هذا الخلط الشديد والواضح حول عدد من المفاهيم والمصطلحات الهامة، كمفهوم الجهاد في الإسلام، ومفهوم القتال، والتطرف، والإرهاب، والإنحراف، والتنطع، والغلو... وغيرها.

وأصبح من المحتم تحرير العقول الإسلامية وغير الإسلامية من هذا الخلط الكبير، بل إن بعض وسائل الإعلام على اختلاف أنواعها، تشارك - دون قصد - في هذا الخلط، وقد وصل الأمر إلى أن مصطلحا كمصطلح " الجهاد في الإسلام " بمفهومه الواسع، كاد أن يكون محملا بظلال سلبية كثيرة، وأصبح من المفاهيم التى يُساء استعمالها لعدم فهم معناه فهمًا صحيحًا، بل ظن البعض - جهلا منهم - أن كل عنف عشوائى له علاقة بالجهاد الإسلامى، والأخطر من ذلك كله، أن هذا الخلط بلغ حد التزييف والتضليل بخلط البعض - بقصد وعن عمد - بين الجهاد والإرهاب! هذا الأخير الذى ليس له علاقة بالإسلام لا من قريب أو بعيد، فهو يروع الآمنين من الأطفال والنساء والشيوخ والأبرياء، ويعمل على إشاعة الخوف والفوضى وسفك الدماء، وانتهاك الحرمات والأعراض.

ولما كانت هذه المصطلحات لها من الأهمية الكبيرة والملحة، ما يفرض أن ننوه عنها، لما أصاب هذه المصطلحات والمفاهيم من خلط واضح في عصرنا الحالى، فإننى سأحاول توضيح بعض هذه المصطلحات والمفاهيم بشئ من الإيجاز، مع التركيز على مفهوم الجهاد في الإسلام كمنظومة شاملة ومتكاملة.

١ - مفهوم الجهاد في الإسلام:

كلمة " الجهاد " مأخوذة من الجهد - بفتح الجيم - وهو التعب، ومن الجهد - بضم الجيم - وهو القوة، فالمجاهد يبذل جهدا يحس فيه بجهد، أى يبذل قوة يحس فيها أو بعدها بتعب.

ومعنى الجهاد " بذل الجهد لنيل مرغوب فيه أو دفع مرغوب عنه، يعنى لجلب الخير أو دفع الشر، وهو يكون بأية وسيلة من الوسائل، وفى أى ميدان من الميادين، وفى السلم والحرب على السواء، ومنه جهاد النفس والشيطان وجهاد الفقر والجهل والمرض، وجهاد البشر جميعا "[(١)].

---

(١) الأزهر الشـريف: بيان للناس من الأزهر الشـريف، ج١، القاهرة: مطابع وزارة الأوقاف، ١٩٩٣، ص ٢٧٣.

والجهاد - كما عرَّفه ابن منظور - " هو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل، وفى الحديث (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية)، والمراد بالنية إخلاص العمل لله، أى أنه لم يبق بعد فتح مكة هجرة لأنها صارت دار إسلام، وإنما هو الإخلاص في الجهاد، أى المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو باللسان أو ما أطاق من شئ " (1).

وقد تناول الفقهاء والمحدثون والمفسرون، والمؤرخون.. وغيرهم موضوع الجهاد بالدراسة والبحث، من حيث مفهومه، وشعبه، وفضائله وآثاره... وغير ذلك، إلا أنهم يعرفون " الجهاد " تعريفا يناسب ما هم بصدده.

- فعلماء الفقه - مثلا - يتكلمون عن الأحكام الخاصة بالقتال، ولذلك يُعرِّفون " الجهاد " بأنه " هو قتال مسلم كافرًا غير ذى عهد بعد دعوته للإسلام وإبائه الدخول فيه وإبائه دفع الجزية " أو " هو قتال مسلم كافرا، أو حضوره (أى حضور القتال) لإعلاء كلمة الله تعالى بعد عرض الإسلام عليه " (2).

- أما المؤرخون من أصحاب المغازى والسير: فهم ينظرون إلى الجهاد نظرة أخرى، فيعرفونه تعريفات أخرى، ويسمون الجهاد بالغزو، فيتكلمون عن الغزوات ومواطنها وأحداثها، وما وقع فيها من نصر أو هزيمة، ومن استشهد، ومن أُسر..... وغير ذلك. ولذلك يعرف " كتاب الجهاد " في غير كتب الفقه " بكتاب المغازى ".

ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها، أن دائرة الجهاد في الإسلام تتسع وتتشعب، فالجهاد في الإسلام متعدد المناحى، ومتشعب الطرق، وعميق المسالك، ومتجدد بتجدد العصور، ولا يقتصر أبدا على القتال المشروع.

- الجهاد كمنظومة شاملة:

وقد فطن إلى مفهوم الجهاد كمنظومة كاملة وشاملة بعض العلماء، منهم " ابن قيم الجوزية " - رحمه الله - حينما قسمه تقسيما رائعا، حيث قسمه إلى أربع مراتب رئيسية، وكل مرتبة بدورها تنقسم إلى مراتب أخرى فرعية، وقد رتبها على النحو التالى:

---

(1) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم الأنصارى: لسان العرب، ج٤، القاهرة: الدار المصرية للتأليف، (د - ت)، ص ١٠٩، ١١٠.

(2) محمد بكر إسماعيل: الفقه الواضح من الكتاب والسنة على المذاهب الأربعة، ط٢، ج٣، القاهرة: دار المنار، ١٩٩٧، ص ١٧٩.

* المرتبة الأولى: جهاد النفس، وينقسم إلى أربع مراتب:

أ - أن يجاهدها على تعلُّم الهدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه، شقيت في الدارين.

ب - أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

ج - أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

د - أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيا حتى يعرف الحق، ويعمل بـه، ويعلِّمه، فمن علم وعمل وعلَّم، فذلك يدعى عظيما في ملكوت الله.

* المرتبة الثانية: جهاد الشيطان، وتنقسم إلى مرتبتين:

أ - جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

ب - جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات.

فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، و الثانى يكون بعده الصبر.

فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والمشبهات.

* المرتبة الثالثة: جهاد الكفار والمنافقين، وهو أيضا أربع مراتب:

أ - بالقلب.

ب - باللسان وهو أخص بالمنافقين.

ج - بالمال.

د - بالنفس وهو أخص بالكفار.

* المرتبة الرابعة: جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات، وهو أيضا ثلاث مراتب:

أ - باليد إذا قدر.

ب - فإن عجز، انتقل إلى اللسان.

ج - فإن عجز، جاهد بقلبه [١].

- يتضح مما سبق، أن هناك ثلاث عشرة مرتبة من الجهاد في الإسلام بمفهومه الشامل، أو كمنظومة متكاملة، وأن إحدى شعب المرتبة الثالثة، يقع الجهاد بالنفس، وهو مفهوم (القتال الحربي المشروع في الإسلام) إذا ما دعت الضرورة إليه، وفرض فرضا على المسلمين.

- إضافة إلى ما سبق نجد أن النبى ، يؤكد كل أنواع الجهاد السابقة، في أحاديثه الشريفة، بل إنه ، يضيف معانى أخرى منها - على سبيل المثال وليس الحصر - ما أخرجه البخارى في صحيحه، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبى ، فاستأذنه في الجهاد. فقال: " أحى والداك؟ " قال: نعم. قال: " ففيهما فجاهد " [٢].

هذا هو الجهاد في الإسلام بمفهومه الشامل، جهاد سلمى، جهاد للنفس، جهاد للشيطان، سعى على الأرملة والمسكين، بر الوالدين والإحسان إليهما، جهاد الجهل، جهاد الفقر، جهاد الظلم والمنكرات، جهاد في كل أنواع العبادات، جهاد الأسرة والأولاد... وغير ذلك مما هو واجب وجوبا عينيا على كل فرد أن يقوم به، ومنه ما هو واجب وجوبا كفائيا كجهاد الجهل بتعلم ما زاد على الواجب، وبتعليم العالم للجاهل، وهكذا.

* * *

٢ - القتـــال:

وهو مرتبة أو فرع أو شعبة من منظومة الجهاد الشامل، وهو ضرورة تقدر بقدرها، ولا يجوز اللجوء إليه إلا ردا للعدوان، أو الدفاع عن الوطن والعرض والمال، والمحكوم بأصول وقواعد أخلاقية دقيقة ومحددة (سوف نتناولها فيما بعد) "

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٩ - ١١.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١٦٥٣/٣، مرجع سابق، ص ١٨٥.

وهو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن البعض الآخر، وأحيانا يكون فرض عين على من عينه الإمام، أو إذا داهم العدو بلدا من البلاد، فإنه يتعين على جميع أهلها مدافعة العدو وقتاله " [1]. ويؤكد ذلك ما رواه مسلم في صحيحه، عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله يوم الفتح؛ فتح مكة: " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا " [2]. ومما تجدر الإشارة إليه، أن (القتال المشروع) الذى هو فرع من الجهاد، قد نفى البعض أنه ركنا من أركان الإسلام، وليس من جوهر الدين ولا من مقاصده، وإنما هو سياج للدين، وأمر سياسى تقتضيه الضرورة.. ولا يطلب لذاته، وإذا كان الله عز وجل استخدم الفعل " كتب " في قوله تعالى:{كتب عليكم القتال وهو كره لكم) فإن الله سبحانه وتعالى استخدم نفس الفعل في تشريعات كثيرة، ليست كلها أركانا، بل منها ما ليس من الفرائض في شئ! فالوصية يوصى بها الميت، قد كتبها الله علينا:

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (البقرة : ١٨٠).

ولم يقل أحد أنها من أركان الإسلام، وكذلك القصاص، كتبه الله عز وجل على المؤمنين: (يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى) ولم يقل أحد أن القصاص من أركان الإسلام! [3].

٣ - الإرهاب:

ورد في المعجم الوجيز " أرهب فلانا ": أى خوَّفه وفزَّعه. والإرهابيون، وصف يطلق على الذين يسلكون سبل العنف لتحقيق أهدافهم السياسية " [4].

وقد عرَّفه مجمع الفقه الإسلامى برابطة العالم الإسلامى، ضمن بيان مكة المكرمة الصادر عنه في دورته السادسة عشرة، في الفترة من (٥ - ١٠ يناير ٢٠٠٢ م) بالتعريف التالى:

---

(١) أبو بكر الجزائرى: منهاج المسلم، كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات، ط٢، القاهرة، مكتبة دار التراث، ١٩٦٤، ص ٣٤٩.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ج٣/١٨٦٤، كتاب الإمارة، مرجع سابق، ص ١٤٨٨.

(٣) محمد عمارة: الدولة الإسلامية بين العلمانية والسلطة الدينية، القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨، ص ٩٩، ١٠٠.

(٤) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ٢٠٠٢، ص ٢٧٩.

" الإرهاب: هو العدوان الذى يمارسه أفراد أو جماعات أو دول، بغيا على الإنسان؛ دمه، وعقله، وماله، وعرضه " [1].

ومن خلال ما سبق، يتضح أن الإرهاب يشكل كل صور التخويف والترويع والأذى والتهديد والقتل بغير حق، كما يشمل كل فعل من أفعال العنف، وإلقاء الرعب بين الناس الآمنين.. كما يمتد ليشمل إلحاق الضرر بالبيئة والمرافق والأملاك العامة والخاصة.

ولا يخفى على أحد أن شريعة الإسلام تُحرِّم جميع ما سبق من أنواع الاعتـداء، وتُحرِّم الفساد بكل أنواعه وأشكاله، وشرعت عقوبات رادعة للمفسدين في الأرض، مما لا يوجد مثله في أى شريعة من الشرائع، أو أى مذهب من المذاهب، سواء من خلال القرآن الكريم أو من خلال سنة النبى وسيرته.

وتجدر الإشارة أن الفعل " رهب " ورد في القرآن الكريم ثمـان مـرات [2] بمعنـى الخشيـة والخـوف مـن الله، أو الخـوف مـن الحيـة، كمـا في سـورة القصص

اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾

[القصص: ٣٢].

وقـد ورد في آيـة واحـدة فقط بمعنى إعداد القوة للردع ممن تسول له نفسه الاعتداء، أى أشبه بما يسمى فـي عصرنـا الحالـى (التسلح السلمى)، وذلك في قوله تعالى:

وأعدوا لهم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ [الأنفال: ٦٠].

* * *

---

(١) نقلاً عن: شوقى عبد اللطيف أيوب: موقف الإسلام من الإرهاب، مجلة منبر الإسلام، السنة (٦٤)، العدد (٥)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، جمادى الأولى ١٤٢٦ هـ - يونيه ٢٠٠٥ م، ص ٩٢.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مرجع سـابق، ص ٣٢٥.

٤ - مصطلحات أخرى (بإيجاز) نهى الإسلام عنها:

- التنطع: يقال تنطَّع في الشئ: أى غالى وتكلف فيه [١].

- التطرف: يقال تطرَّف في كذا: أى جاوز حد الاعتدال، ولم يتوسط[٢].

- الانحراف: وهو الميل عن الاعتدال [٣].

- الغلو: يقال غلا فلان: أى جاوز الحد، فهو غال.

- العنف: يقال عَنُفَ به، وعليه..عنفا:أى أخذه بشدة وقسوة، فهو عنيف[٤].

* * *

ثانياً: القواعد والضوابط الخلقية للحرب (القتال) في السيرة النبوية:

لما كان من الصعوبة البالغة، الإحاطة بالأصول والقواعد الخلقية للحرب في سيرة رسول الله ، فقد وجدت من الأفضل أن أقسم تلك القواعد الخلقية، تقسيما اصطناعيا، في محاولة متواضعة، ليسهل إبراز تلك القواعد - إلى حد ما - في سيرة رسول الله ، والتى لا يمكن الإحاطة بها بأى حال من الأحوال.

ولذا، فقد قسمتها إلى ثلاثة أقسام أو مراحل رئيسية:

قبل الحرب أو القتال.

أثناء الحرب (القتال).

- بعد الحرب (القتال).

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوجيز، مرجع سابق، ص ٦٢١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٨٩.
(٣) المرجع السابق، ص ١٤٥.
(٤) المرجع السابق، ص ٤٣٧.

المرحلة الأولى (قبل الحرب أو القتال):

١ - إيثار السلم على الحرب:

إن السلام في منهج رسول الله ، هو الأصل، والحرب هى الاستثناء، وضرورة تقدر بقدرها، وإن حدث وفُرض القتال فرضا فإنه ليمثل السماحة في أجلى وأروع صورها، ولذلك كان النبى يوصى دائما بأن يسبق الحرب دعوة سلام وتسامح، وكان هذا ضروريا في العهد الإسلامى الأول لضرورة تبليغ الرسالة الخاتمة والعالمية، وليس لإكراه أحد أو إجباره على الدخول في الإسلام.

أما في العصر الحاضر، " فإن معظم الباحثين يرون أن تسبق الدعوة للقتال، دعوة عدالة، وتعهد للتعايش السلمى وعدم الاعتداء والجور على المسلمين، فإن أصر المعتدى - مثلا - على الاعتداء بغير حق، فالقتال في هذه الحالة يكون ضروريا ومفروضا.. ولم يكن القتال قط وسيلة لفرض الإسلام، ومن الجهالة أن يدعى أحد ذلك، لسبب واضح تماما هو أن العقائد لا تستقر بالإكراه [(١)].

ويؤكد هذا المعنى السابق بعض التوجيهات النبوية التالية:

أ - أخرج البخارى ومسلم في صحيحيهما، عن عبد الله بن أبى أوفى، قال: سمعت النبى يقول: " يأيها الناس: لا تمنَّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف " ثم قال: " اللهم منزل الكتاب، ومجرى السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم " [(٢)].

ب - أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله إذا أمَّر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: " اغزوا باسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين،

---

(١) أحمد شلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ١٣٢.
(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان، ج٢ / ١١٣٧، مرجع سابق، ص ٢٠٢.

وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبـوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفئ شئ. إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبو فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله (العهد) وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم (أى تنقضوا العهد) أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنـزلهم على حكم الله، فلا تنـزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا " [1].

ج- بعث النبى أبا موسى ومعاذا إلى اليمن - كما أخرج البخارى في صحيحه - فقال: " يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا " [2].

وهذا أمر من رسول الله بالتيسير والخير وعدم التخويف، وعدم الاختلاف.

كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن معاذ رضى الله عنه، قال: بعثنى رسول الله إلى اليمن فقال: " إنك تأتى قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنى رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " [3].

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج١٧٣١/٣، كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، ص ١٣٥٧، ١٣٥٨.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـيخان، ج٢ / ١١٣٠، مرجع سابق، ص ٢٠٠.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، ج١٩/١، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص ٥١.

٢ - تعليمات نبوية أخلاقية مقيدة بقيود رحيمة:

أ - النهى عن المثلة والظلم والفساد:

عن عبد الله، قال: قال رسول الله " أعف الناس قتلة أهل الإيمان " [١].

وعن عمران بن حصين، قال: " كان رسول الله يحثنا على الصدقة وينهانا عن المثلة " [٢].

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، أن النبى قال: ".... اغزوا ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا " [٣].

وعن أنس رضى الله عنه، قال: " كان رسول الله يحث في خطبته على الصدقة وينهى عن المثلة " [٤].

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه، عن رسول الله قال: " الغزو غزوان، فأما من ابتغى وجه الله وأطاع الإمام وانفق الكريمة واجتنب الفساد، فإن نومه ونبهته أجر كله، وأما من غزا رياء وسمعة وعصى الإمام وأفسد في الأرض، فإنه لا يرجع بالكفاف " [٥].

ب - النهى عن قتل النساء والشيوخ والأطفال والأجراء:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عمر رضى الله عنه، قال: وُجدت امرأة مقتولة في بعض تلك المغازى، فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان " وفى رواية أخرى " فأنكر رسول الله ، قتل النساء والصبيان " [٦].

---

(١) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٣ /٢٦٦٦، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣/٢٦٦٧، كتاب الجهاد، ص ٥٣.

(٣) المرجع السابق، مج٢، ج٣ /٢٦١٣، كتاب الجهاد، ص ٣٧.

(٤) النسائى: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى، مج٤، ج٧، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٥) المرجع السابق، مج٤، ج٧، ص ١٥٥.

(٦) مسلم: صحيح مسلم، ج٣ /١٧٤٤، كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، ص ١٣٦٤.

وأخرج أبو داود، عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أن رسول الله ، قال : " انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخًا فانيا، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين " (١).

عن رباح بن ربيع، قال: كنا مع رسول الله في غزوة فرأى الناس مجتمعين على شئ، فبعث رجلا فقال: " انظر علام اجتمع هؤلاء " فجاء فقال: على امرأة مقتولة، فقال: " ما كانت هذه لتقاتل " قال: وعلى المقدمة خالد بن الوليد، فبعث رجلا فقال: " قل لخالد لا يقتلن امرأة ولا عسيفا " (٢) والعسيف هو الأجير أو الفلاح.

ج - التحذير الشديد من الغدر والخيانة:

أخرج البخارى في صحيحه، عن ابن عمر رضى الله عنه، أن رسول الله ، قال: " إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال: هذه غدرة فلان بن فلان " (٣).

وأخرج مسلم في صحيحه، عن ابن عمر رضى الله عنه قال: قال رسول الله : " إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان " (٤).

د - حرمة ذمة المعاهدين والنهى الشديد عن القتل:

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، عن النبى ، قال: " من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما " (٥).

وعن أبي بكرة، قال: قال رسول الله : " من قتل معاهدا في غير كُنهِه حرم الله عليه الجنة " (٦).

---

(١) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٣ /٢٦١٤، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٣٨.
(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣ / ٢٦٦٩، ص ٥٣، ٥٤.
(٣) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـيخان، ج٢/١١٣٢، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢٠١.
(٤) مسلم: صحيح مسلم، ج٣/١٧٣٥، كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، ص ١٣٥٩.
(٥) العسـقلانى، أحمد بن على بن حجر: فتح البارى بشـرح صـحيح الإمام عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، ج٦، كتاب الجزية والموادعة، القاهرة: المكتبة السلفية، ١٤٠٧ هـ، ص ٣١١.
(٦) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٣ /٢٧٦٠، مرجع سابق، ص ٨٣.

بل إن رسول الله اعتبر ضرب الإنسان الفاجر أو المعاهد دون ذنب أو سبب جريمة يتبرأ الرسول من صاحبها، فيقول ، كما أخرج مسلم في صحيحه:

عن أبي هريرة رضى الله عنه، عن النبى ، أنه قال: "... ومن خرج على أمتى، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفى لذى عهد عهده، فليس منى ولست منه " [(١)].

وأخرج البخارى في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله : " لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل " [(٢)].

كما قال النبى : " أول ما يقضى بين الناس بالدماء " [(٣)].

٣- إعداد القوة الممكنة المحكومة بأسمى الأخلاق:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ، وهو على المنبر، يقول: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة. ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى، ألا إن القوة الرمى " [(٤)].

كما أخرج الإمام مسلم أيضا في صحيحه، عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله : " المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أنى فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان " [(٥)].

والإعداد الذى يقصده النبى ، ويأمر به في هذا الحديث الشريف، امتثالا للقرآن الكريم،هو تهيئة الشئ للمستقبل، بما يشبه في وقتنا الحاضر(التسلح السلمى)،

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج١٨٤٨/٣، كتاب الإمارة، مرجع سابق، ص ١٤٧٧.
(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١٠٩٢/٢، كتاب القسامة، مرجع سابق، ص ١٨٢.
(٣) المرجع السابق، ج١٠٩٣/٢، ص ١٨٢.
(٤) مسلم: صحيح مسلم، ج١٩١٧/٣، كتاب الإمارة، مرجع سابق، ص ١٥٢٢.
(٥) مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن القشيرى: صحيح مسلم (مشكول)، ج٨، كتاب القدر، القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده، (د - ت)، ص ٥٦.

وتتجلى بلاغة النبى ، في قوله: " ألا إن القوة الرمى، ثلاث مرات " فهى كما قال بعض المفسرين، من قبيل حديث: " الحج عرفة " بمعنى أن كلا منهما أعظم الأركان في بابه، وذلك أن رمى العدو عن بعد أسلم من لقائه على القرب بسيف أو رمح أو حربة، كما أن إطلاق الرمى في الحديث يشمل كل ما يُرمى به العدو من بعد بسهم أو قذيفة، أو طائرة، أو بندقية، أو قنبلة... أو غير ذلك، وإن لم يكن كل هذا معروفا في عصر النبى [1].

فإعداد القوة هنا هو من الأساليب الوقائية الهامة، حتى لا يتجرأ أحد على الاعتداء على الديار الإسلامية، ورسول الله ، حين يأمر بإعداد القوة الممكنة، والأخذ بأسباب القوة، فليس معنى ذلك أن تكون هذه القوة قوة جنونية غاشمة، بقصد الهيمنة المادية والمعنوية بما يخدم مصالح صاحب القوة، " ولكن الذى يقصده النبى ، القوة المحكومة بضوابط وأخلاق نابعة من القانون الإلهى الذى لا يعرف الخطأ، فهى قوة حق وعدل، هى قوة ردعية لا عدائية، سلمية لا تسلطية " [2].

كما أن الإعداد يشمل أيضا قوة الإيمان والأخلاق والعلم، والتماسك، والتخطيط الواعى أمام التحديات، والتزام الحذر والحيطة، بما في ذلك " حساب الاحتياطى غير المنظور أثناء القتال وكل ذلك حتى تكون القوة قادرة على دعوة الأعداء إلى التفكير الطويل في نتائج المعركة قبل خوضها، وقد تدعوه إلى إيثار الصلح والتفاهم والسلام، وفى هذا حقن للدماء وتوفير الطاقات، وضمان السلام والمحبة والسعادة لكل البشر.

وكلمة " المؤمن القوى " في الحديث السابق، تعنى - بمدلولها العام والشامل - القوة البدنية والإيمانية والأخلاقية والنفسية، وقوة العلم والإرادة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فهى القوة التى تحمل معنى العزة والكرامة، وهى من الصفات الملازمة للمؤمن، فلا يمكن أن يجتمع ضعف وهوان مع عزة وكرامة، كما لا يجتمع نور وهدى مع ظلمات وضلال.

وخير دليل على أن القوة ضرورة للردع كأسلوب وقائى، ممن تسول له نفسه الاعتداء على الآخرين بغير حق، هو نموذج " كوريا الشمالية " فهى على صغرها،

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ط٢، ج١٠، القاهرة:مطبعة المنار بمصر، ١٩٤٧، ص٦١.

(٢) محمود خليل: مفهوم القوة في الإسلام، مجلة الأزهر، السنة (٧٦)، ج٩، القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية، رمضان ١٤٢٤ هـ - نوفمبر ٢٠٠٣، ص ١٤٧٥.

فإن الدول الكبرى تفكر عشرات المرات إذا ما فكرت في الاعتداء عليها، ويعزى بعض العلماء سبب هذا الإباء والكبرياء لهذه الدولة، لأنها أنتجت صاروخا يمكن أن يصل إلى مسافات بعيدة جدا، لدرجة أن هذا العالم الجليل تمنى أن يكونوا مسلمين بقوله: " لو كانوا مسلمين لأعزوا أمة الإسلام " [(١)].

ورسول الله يثبت ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك مبدأ الإعداد والتخطيط السليم للقوة المحكومة بأسمى أخلاق الرحمة والرفق، وعدم العنف بجملة من الأحاديث الشريفة نذكر منها ما يلى:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن ابن عمر رضى الله عنه، أن النبى قال: " من حمل علينا السلاح فليس منا " [(٢)].

كما أخرج أيضا، عن إياس بن سلمه، عن أبيه، عن النبى ، قـال: " من سل علينا السيف فليس منا " [(٣)].

وعن جرير، قال: قال رسول الله " من يحرم الرفق يحرم الخير كلـه " [(٤)].

القوة المعنوية العالية التى تفوق الخيال:

ويرتبط بإعداد القوة الممكنة المحكومة بالأخلاق العالية، التهيئة المعنوية، ورفع الروح المعنوية قبل القتال، ومنهج النبى خلال سيرته العطرة في هذا الجانب الهام، يعد آية من الآيات التى تقف عندها كل العقول، فقد بلغت الثقة التى كان يتمتع بها النبى عند الصحابة، مبلغا يفوق الخيال، وكانت شخصيته ، لها من القوة والنفاذ بحيث تجعل كل من يخالطها لا يملك إلا أن يذوب فيها، ويبذل كل ما يملك من نفس ومال وأولاد.... فداءً لهذا الرسول العظيم.

---

(١) عبد الصبور مرزوق: قراءة في دفاتر كوريا الشمالية، منبر الإسلام، السنة (٦١) العدد (١١)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ذو القعدة ١٤٢٣ هـ - يناير ٢٠٠٣، ص٢.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ج٩٨/١، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٣) المرجع السابق، ج٩٩/١، ص٩٨.

(٤) المرجع السابق: مج٢، ج٤٨٠٩/٤، كتاب الأدب، ص ٢٥٥.

لقد بلغ من تربية النبى لصحابته في هذا الجانب الخطير، أن الجيش الصغير " يوم مؤته (ثلاثة آلاف) يهجم على جيش كبير يقرب من (مائتى ألف) ولا يبالى بنتيجة المعركة! [١].

كما أن هذه الروح المعنوية العالية جعلت الصحابي الجليل، عمير بن الحمام الأنصارى رضى الله عنه عندما قال النبى ، يوم بدر: " فقوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض " ، قال عمير: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم! قال بخ بخ؟ فقال رسول الله : " ما يحملك على قول بخ بخ؟ " قال لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: " فإنك من أهلها " قال فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: " لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها حياة طويلة، قال فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله " [٢].

وسيرة النبى ، مليئة بالأمثلة الكثيرة التى تؤكد هذا المعنى، ولكن السر وراء هذه الروح المعنوية التى لا تحدها حدود، يرجع إلى أقصى درجات الثقة التى يتمتع بها النبى ، عند الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من ناحية، وحرصهم كل الحرص على إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، والظفر بالنصر أو الشهادة، ويقينهم الذى لا يتزعزع قيد أنملة في أحاديث رسول الله لهم من ناحية أخرى، ومن هذه الأحاديث الشريفة على سبيل المثال ما يلى:

عن أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ، فقال الرجل يقاتل ليذكر، ويقاتل ليغنم، ويقاتل ليرى مكانه. فمن في سبيل الله؟ قال: " من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله عـز وجـل " [٣].

بل إن رسول الله يقول: " أول الناس يقضى لهم يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت ليقال فلان جرئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار... " [٤].

---

(١) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ، ج٣، مرجع سابق، ص ٢٩١، ١٩٢(بتصرف).
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٠٨.
(٣) النسائى: سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى وحاشية الإمام السندى، مج٣، ج٦، مرجع سابق، ص ٢٣.
(٤) المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٤.

عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال: سمعت رسول الله ، يقول: " مثل المجاهد في سبيل الله والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم الخاشع الراكع الساجد " (١).

وعنه أيضا، عن النبى ، قال: " من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة نفاق " (٢).

وعن زيد بن خالد، عن رسول الله ، قال: " من جهز غازيا فقد غزا، ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا " (٣).

وأخرج البخارى في صحيحه، عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ، قال: " ما أحد يدخل الجنة، يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شئ، إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة " (٤).

وعنه أيضا، عن النبى ، قال: " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها " (٥).

وعن فضالة بن عبيد، أن رسول الله ، قال: " كل الميت يختم على عمله، إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبـر " (٦).

وعن أنس رضى الله عنه، قال النبى : " جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم " (٧).

وقال عبد الله بن عمرو: يا رسول الله، أخبرنى عن الجهاد والغزو، فقال: " يا عبد الله بن عمرو، إن قاتلت صابرا محتسبا، بعثك الله صابرًا محتسبا، وإن قاتلت مرائيا مكاثرا، بعثك الله مرائيا مكاثرا، يا عبد الله بن عمرو، على أى حال قاتلت أو قتلت بعثك الله على تيك الحال " (٨).

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨.
(٢) المرجع السابق، ص ٨.
(٣) المرجع السابق، ص ٤٦.
(٤) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١٢٣٢/٢، كتاب الإمارة، مرجع سابق، ص ٢٥٦.
(٥) المرجع السابق، ج١٢٣٤/٢، ص ٢٥٧.
(٦) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٢٥٠٠/٣، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٩.
(٧) المرجع السابق، مج٢، ج٢٥٠٤/٣، كتاب الجهاد، ص ١٠.
(٨) المرجع السابق، مج ٢، ج٢٥١٩/٣، كتاب الجهاد، ص ١٤، ١٥.

٤- الأخذ بمبدأ الشورى لاتقاء التنازع والخلاف:

لاشك أن رسول الله - كما ذكرت من قبل - هو المثل الأوفى والكامل لتعاليم القرآن الكريم وأوامره، ولذلك قال : " المستشار مؤتمن " [(١)]، وسيرة رسول الله ، لخير شاهد على إقرار هذا المبدأ الهام في الحرب (القتال).

وهذه بعض الأمثلة التى تؤكد هذا المبدأ العظيم:

قبل غزوة بدر (رمضان ٢ هـ) استشار النبى الناس فأشار المهاجرون، فلم يكتف بذلك قبل أن يتخذ قراره الأخير، فقال رسول الله : " أشيروا عليَّ أيها الناس. وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.فكان رسول الله يتخوَّف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصرة إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ، قال له سعد بن معاذ رضى الله عنه:والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟قال:أجل. قال:فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت بـه هـو الحق، وأعطينـاك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذى بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء. لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله. فسُر رسول الله بقول سعد، ونشطه ذلك؛ ثم قال: " سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم " [(٢)].

هذه هى نتيجة الاستشارة وثمارها الطيبة، والتى رفعت القوة المعنوية لهذا الصحابى الجليل (سعد بن معاذ) رضى الله عنه، إلى درجة تفوق الخيال، وهى وقفة تهتز لها القلوب هزا، فسجلت له هذه العبارات بأحرف من نور، وما كان ذلك ليحدث أبدا لولا الثقة الكاملة في رسول الله ، والذى أكد أن الله سبحانه وتعالى وعده إحدى الطائفتين، فرغم علم رسول الله بوعد ربه عز وجل له، لم يمنعه ذلك أيضا أن يستشير.

---

(١) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٥١٢٨/٤، كتاب الأدب، مرجع سابق، ص ٣٣٣.
(٢) ابن هشام: سيرة النبى ¤، ج٢، مرجع سابق، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

وفى غزوة بدر أيضا، أشار الصحابي الجليل (الحباب بن المنذر بن الجموح) على رسول الله عندما قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: " بل هو الرأى والحرب والمكيدة " فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله، ثم نغوِّر ما وراءه من القُلُب، ثم نبنى عليه حوضا فنملؤه ماءً، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون؛ فقال رسول الله : لقد أشرت بالرأى. فنهض رسول الله ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقُلُب فغورت، وبنى حوضا على القُلُب الذى نزل عليه فمُلىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية. [١].

وبعد غزوة بدر كذلك، " استشار رسول الله الناس في الأسارى، فقال: " إن الله قد أمكنكم منهم "، فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله أضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبى ، ثم عاد النبى ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق فقال: يا رسول الله نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء. فذهب عن وجه رسول الله ، ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفـداء " [٢].

وفى غزوة أحد استشار النبى الصحابة، وكان محور الشورى يدور على أمرين: أيخرج النبى بجيش الإيمان، ويقاتلهم حيث يكون خير مكان للقتال؟ أم أنه يبقى في المدينة المنورة؟ وكانوا صنفين، صنف من أهل النجدة والبأس والقوة لم يجدوا في الانتظار ما يتفق مع ما عندهم من إقدام، وأنه لا بد أن يلاقوهم ولا ينتظروهم، ومن هؤلاء: (حمزة بن عبد المطلب) أسد الله، فقد قال في قوة: " والذى أنزل عليك الكتاب لنجالدنهم ". والصنف الثانى من الذين لم يحضروا بدرا، وأرادوا أن يكون لهم في هذه الموقعة شرف مثل شرفها، وقالوا: كنا نتمنى مثل هذا اليوم، وندعو الله، فقد ساقه إلينا، وقرب المسير. وقد انتهى الرأى بالخروج، لتكاثر الذين أرادوه، وكثرة الذين أرادوا أن يستعيضوا عن شرف الجهاد في بدر بشرف الجهاد في أحد. ويروى أنهم ترددوا في هذا الرأى، ولكن الشورى ليس معناها التردد، فإن مع التردد الهزيمة، وقد نبههم النبى إلى منع التردد قائـلا " ما ينبغى لنبى لبس لأمة الحرب وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع، حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى البقاء، فأبيتم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله تعالى، والصبر عند البأس،إذا لقيتم العدو، وانظروا ماذا أمركم الله ".

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١١.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٣١.

ورغم ما حدث في هذه الغزوة، فهى ليست هزيمة كما يقول البعض؛إنما تكون الهزيمة إذا كان جيش الإيمان قد فر فرارا، ولكن الذى أنهى القتال هم المهاجمون، وكأنما اكتفوا بأن أصابوا مقتلة من المسلمين، وقد رأوا السيوف الإسلامية تبرق، ولذلك سماها القرآن الكريم قرحا، وسماها إصابة [١].

وفى غزوة الخندق (الأحزاب ٥ هـ)، ذكر ابن هشام، أن سلمان الفارسى رضى الله عنه، هو الذى أشار على رسول الله ، بحفر الخندق، وقال المهاجرون: سلمان منا، وقالت الأنصار: سلمان منا، فقال رسول الله : " سلمان منا أهل البيت " [٢].

وفى غزوة الطائف (٨ هـ)، " لما مضت خمس عشرة من حصار الطائف، استشار رسول الله ، نوفل بن معاوية الدئلى فقال: " يا نوفل ما ترى في المقام عليهم؟ " قال: يا رسول الله ثعلب في جحر إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك. فأمر رسول الله ، الناس أن لا يسرحوا ظهرهم، فلما أصبحوا ارتحل رسول الله ، وأصحابه [٣].

وفى غزوة تبوك (رجب ٩هـ)، استشار النبى أصحابه، بعدما أقام بتبوك نحو عشرين ليلة، هل يجاوزها إلى ما وراءها من ديار الشام؟ فقال له عمر بن الخطاب: " يا رسول الله، إن كنت أُمرت بالسير فسر ". فقال : " لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فيه ". فقال: " يا رسول الله، إن للروم جموعا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يحدث الله أمرا! ". فتبع النبى مشورة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وأمر بالقفول؛ فرجع الجيش إلى المدينة، بعد أن أمَّن رسول الله حدود الدولة من ناحية الشمال، بما عقد من المعاهدات بينه وبين نصارى العرب المجاورين للروم [٤] وقد كان هذا تمهيدا للمعارك الإسلامية الكبيرة التى حدثت في المستقبل. هذه بعض نماذج من سيرة رسول الله ، تؤكد مبدأ الشورى في أجلى صوره، لاستخلاص الرأى الصالح والصحيح، وهذه هى القيادة الحكيمة التى لا تستنكف أن تنزل على رأى صحابي مسلم مهما كان، ما دام الرأى سليما صحيحاً.

---

(١) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، مج٢، القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٤، ص ٦١١ - ٦١٣ (بتصرف).

(٢) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ، ج٣، مرجع سابق، ص ١٥٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٣٨٨.

(٤) أمين دويدار: صور من حياة الرسول ﷺ، ج٤، مرجع سابق، ص ١٧٧.

٥- محاولة استطلاع أخبار العدو:

لما نزل النبى ببدر، بعث عليا بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه - حين أمسى - إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له، فأصابوا رواية (الإبل التى يستقى الماء عليها) لقريش فيها أسلم غلام بنى الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله قائم يصلى، فقالوا نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم من الماء... فلما انتهى النبى من صلاته، قال لهما: " كم القوم؟ " قالا كثير. قال: " ما عدتهم؟ " قالا: لا ندرى، قال: " كم ينحرون كل يوم؟ " قالا: يوما تسعاً ويوما عشراً. فقال رسول الله : " القوم ما بين التسعمائة إلى الألف " ثم قال لهما: " فمن فيهم من أشراف قريش " قالا: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البحترى بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدى بن نوفل، والنضر بن الحارث، وزمعه بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبد ود. فأقبل رسول الله على الناس فقال: " هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها " [١]. وروى أبو داود، عن أنس رضى الله عنه، قال: بعث النبى ، بُسبسة (بسبسة بن عمرو) عينا ينظر ما صنعت عير أبي سفيان " [٢].

وذكر أيضا صاحب البداية والنهاية - كما ثبت أيضا في صحيح مسلم - عن حذيفة قال: لقد رأيتنا مع رسول الله ، ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديد وقر (برد)، فقال رسول الله : " ألا رجل يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة؟ " فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية ثم الثالثة مثله. ثم قال: " يا حذيفة قم فأتنا بخبر القوم " ، فلم أجد بداً إذ دعانى باسمى أن أقوم، فقال: " ائتنى بخبر القوم ولا تذعرهم على ". قال، فمضيت كأنما أمشى في حمام حتى أتيتهم فإذا أبو سفيان يُصْلى ظهره بالنار فوضعت سهما في كبد قوسى وأردت أن أرميه، ثم ذكرت قول رسـول الله : " لا تذعرهم على " ، ولو رميته لأصبته، فرجعت كأنما أمشى في حمام، فأتيت رسول الله ، فأصابنى البرد حين رجعت وقررت (أصابنى برد)، فأخبرت رسول الله ، وألبسنى من فضل عباءة كانت عليه يصلى فيها فلم أبـرح نائما حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله : " قـم يا نـومـان " [٣].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٢٩٤.
(٢) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٣/٢٦١٨، مرجع سابق، ص ٣٨.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ١٢٨.

٦- لزوم ووجوب الطاعة:

وقد حث النبى على وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وحذر تحذيرا شديدا من مخالفتهم، وهذا من شأنه أن يجعلهم على قلب رجل واحد، وجعل طاعة الأمراء في القتال من طاعته ، وهذا المبدأ الأخلاقى يتضح بجلاء في سيرة رسول الله ، وذلك من خلال بعض الأحاديث الشريفة التالية:

أخرج البخارى ومسلم في صحيحيهما، عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم "، قال: نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى، إذ بعثه النبى في سرية " [١]. وعن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ، قال: " من أطاعنى فقد أطاع الله ومن عصانى فقد عصى الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى " [٢].

الطاعة المبصرة في المعروف:

أخرج البخارى ومسلم في صحيحيهما، عن على رضى الله عنه، قال: بعث النبى سرية وأمَّر عليهم رجلا من الأنصار وأمرهم أن يطيعوه. فغضب عليهم، وقال: أليس قد أمر النبى أن تطيعونى؟ قالوا: بلى. قال: عزمت عليكم لما جمعتم حطبا وأوقدتم نارا ثم دخلتم فيها. فجمعوا حطبا، فأوقدوا. فلما هموا بالدخول، فقام ينظر بعضهم إلى بعض، قال بعضهم: إنما تبعنا النبى فرارا من النار، أفندخلها؟ فبينما هم كذلك إذ خمدت النار، وسكن غضبه. فذُكر للنبى ، فقال: " لو دخلوها ما خرجوا منها أبدا، إنما الطاعة في المعروف " [٣].

المرحلة الثانية (أثناء القتال):

لقد ربى النبى صحابته على مبادئ وقواعد أخلاقية أصيلة أثناء الحرب أو القتال؛ فالقاعدة الأساسية هى السلام، فإذا ما فرض عليهم رد العدوان، ثبتوا ثبات الأبطال، ودافعوا دفاع الفرسان بكل عزة وكرامة، ولكنهم لا ينسون أبدا القواعد الأخلاقية المحكومة بالرحمة والرفق - والتى ذُكرت آنفا - ومن هذه القواعد والضوابط الخلقية أثناء القتال ما يلى:

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج٢/١٢٠٣، كتاب الإمارة، مرجع سابق، ص ٢٤٥.
(٢) المرجع السابق، ج٢/١٢٠٤، ص ٢٤٥.
(٣) المرجع السابق، ج٢/١٢٠٦، ص ٢٤٦.

أولاً: الصبر والثبات وعدم الفرار:

وكان رسول الله ، هو الأسوة العليا في ذلك المبدأ، يقول البراء رضى الله عنه - كما أخرج مسلم -

- " كنا، والله! إذا احمر البأس (كناية عن شدة الحرب) نتقى برسول الله. وإن الشجاع منا للذى يحاذى به " [1].

- وهذا هو على بن أبي طالب رضى الله عنه؛ والذى لم يهزم في مبارزة قط، يقول: " لما كان يوم بدر وحضر البأس، اتقينا برسول الله ، وكان من أشد الناس بأسا يومئذ، وما كان أحد أقرب إلى المشركين منه " [2].

- وقد ضرب النبى أروع الأمثلة في الثبات يوم حنين (٨هـ) عندما خرج النبى ، بعد فتح مكة في اثنى عشر ألفا من المسلمين، واعتمد المسلمون على الكثرة العددية، وحدث ما حدث أول القتال، فجعل رسول الله ، يقول: " يا أنصار الله وأنصار رسوله أنا عبد الله ورسوله! " ورجع رسول الله ، إلى العسكر وثاب إليه من انهزم وثبت معه يومئذ العباس بن عبد المطلب، وعلى بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو بكر وعمر وأسامة بن زيد في أناس من أهل بيته وأصحابه، وجعل يقول للعباس: ناد يـا معشر الأنصار يا أصحاب السُمرة يا أصحاب سورة البقرة! فنادى، وكان صيتا، فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها يقولون: يـا لبيك يـا لبيك! فحملوا على المشركين فأشرف رسول الله ، فنظر إلى قتالهم فقال: " الآن حمى الوطيس! أنا النبى لا كذب، أنا ابن عبد المطلب! " ثم قال للعباس بن عبد المطلب: " ناولنى حصيات " ، فناولته حصيات من الأرض ثم قال: " شاهت الوجوه! " ورمى بها وجوه المشركين وقال: " انهزموا ورب الكعبة! " وقذف الله في قلوبهم الرعب، وانهزموا لا يلوى أحـد منهم على أحد [3].

وإذا كان القرآن الكريم قد حمل حملة شعواء على الذين يتقاعسون عن القتال إذا فرض عليهم فرضا، فإن رسول الله ، اعتبر الفرار والتولى يوم الزحف من السبع المهلكات ومن الكبائر.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج١٧٧٦/٣، كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، ص ١٤٠١.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج٢، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥١.

فأخرج الإمام مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ، قال: " اجتنبوا السبع الموبقات " قيل: يا رسول الله! وما هن؟ قال " الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات " (١).

وهذا هو رسول الله ، يضرب المثل الكامل في الشجاعة والثبات في أحد، فقد ذكر ابن كثير - كما أخرج البخارى - " عن أبي حازم، أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح النبى فقال: أما والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووى (عولج)، قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ، تغسله، وعلى يسكب الماء بالمجن (الدرع الواقى للقتال)، فلما رأت فاطمة أن المــاء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الـدم، وكسرت رباعيته يومئذ وجـرح وجهه، وكسرت البيضة (مايشبه الخوذة) على رأسه " (٢).

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: لقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ (يوم أحد) سبعين ضربة، فما عرفه إلا أخته، عرفته ببنانه " (٣).

ومن الأمثلة التى تظهر عظمة رسول الله ، في تربية صحابته على الصبر والثبات أثناء القتال،بدرجة تفوق الخيال: هو ما حدث يوم (مؤتة ٨هـ) فقد صعد النبى ، المنبر، فأمر فنودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس على رسول الله فقال: " أخبركم عن جيشكم هذا، إنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفر له، ثم أخذ اللواء جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا شهد له بالشهادة واستغفر له، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فأثبت قدميه حتى قتل شهيدا فاستغفر له، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد " ولم يكن من الأمراء، هو أمَّر نفسه، ثم قال رسول الله : " اللهم إنه سيف من سيوفك أنت تنصره " (٤).

وكما ذكرت - في عنصر القوة المعنوية - كان جيش المسلمين ثلاثة آلاف في مقابل مائتى ألف من الروم.

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ج٨٩/١، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص ٩٢.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٣٣.
(٣) المرجع السابق، مج٢، ج٤، ص ٣٩.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٢٧٦، ٢٧٧.

ولما قتل جعفر بن أبي طالب (ﷺ)، وجدوا فيه بضعا وتسعين ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، وهو في ذلك كله مقبل غير مدبر، وكانت قد طعنت يده اليمنى ثم اليسرى وهو ممسك للواء، فلما فقدهما احتضنه حتى قتل وهو كذلك [1] فرضى الله عنهم أجمعين.

* * *

ثانياً: الدعاء عند لقاء الأعداء:

لم يغفل النبى ، أن يربي صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، على الالتجاء إلى الله عز وجل عند لقاء العدو، فبعد الأخذ بكل أسباب القوة الممكنة، يجب أن يعلموا تمام العلم، أن القوة لله جميعا، وأن النصر الحقيقى من عند الله سبحانه وتعالى، وهو جانب على درجة عالية من الأهمية، وكان رسول الله أيضا، هو الأسوة العليا في ذلك الجانب، ففى أول غزوة له (غزوة بدر) أخذ يدعو ويستغيث بربه عز وجل حتى سقط رداؤه. وقد ذكر ابن كثير - كما روى البخارى أيضا - عن عكرمة عن ابن عباس أن النبى قال:وهو في قبة له يوم بدر: " اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدا " فأخذ أبو بكر بيده وقال حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، فخرج وهو يثب في الدرع كما رواه ابن أبي حاتم، عن عكرمة، قال: لما كان يوم بدر رأيت رسول الله ، يثب في الدرع وهو يقول (سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) فعرفت تأويلها يومئذ [2].

وعن عبد الله بن أبي أوفى - كما أخرج مسلم - قال: دعا رسول الله ، على الأحزاب فقال " اللهم منـزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم " [3].

وعن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ، كان يقول يوم أحد: " اللهم! إنك إن تشأ، لا تعبد في الأرض " [4].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٨٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

(٣) مسلم: صحيح مسلم، ج١٧٤٢/٣، كتاب الجهاد والسير، مرجع سابق، ص ١٣٦٣.

(٤) المرجع السابق، ج١٧٤٣/٣، ص ١٣٦٣.

وأخرج أبو داود، عن سهل بن سعد، قال: قال رسـول الله : " ثنتـان لا تردان، أو قلما تردان، الدعاء عند النداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضا " [1].

ثالثاً: الخديعة للضرورة بغية السلام:

إن رسول الله ، كان حريصا أشد الحرص على إيثار السلام، كما كان حريصا على صحابته رضوان الله عليهم أجمعين، ولذلك كان يأمر بالصمت عند الزحف (القتال)، وقد " أمر ، يـوم بـدر أن تقطع الأجراس من أعناق الإبـل " [2] تأكيداً لهذا المبدأ.

وكان رسول الله ، أحيانا يُخَذِّل بين الأعداء بغية السلام، أو لحصول الظفر بغير خطر، وقد بلغ النبى ، في ذلك ما لم تبلغه أى دولة في القديم أو في الحديث، فكان أكثر الناس ذكاءً وفراسة في اختيار الرجل المناسب للمقام المناسب له، وعلى علم تام بإمكانية كل صحابي، ووضعه في مكانه الأمثل والصحيح.

وخير مثال لذلك، اختيار النبى " نعيم بن مسعود " يوم الأحزاب، وكما يقول (العقاد): " ما نجحت دعوة قط برجل واحد نجاح هذا الرجل.. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائف الأعداء، فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال في الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها.. " [3].

فقد جاء نعيم بن مسعود، يوم الأحزاب - وهو يوم شديد كما وصفه القرآن الكريم - فقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى بما شئت، فقال رسول الله : " إنما أنت رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة " فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة، وكان لهم نديما في الجاهلية فقال: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتـم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة (فرصة) أصابوها، وإن كان غير ذلك، لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدا حتى تناجزوه. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

---

(١) أبو داود: سنن أبى داود، ج٣/٢٥٤٠، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢١.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٢٩٠.

(٣) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ٤٩.

ثم خرج حتى أتى قريشا فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدا، وإنه قد بلغنى أمر قد رأيت على حقا أن أبلغكموه نصحا لكم فاكتموا عنى. قالـوا نفعل، قـال: تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه، إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم، فنضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأصلهم، فأرسل إليهم أن نعم. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحدًا.

ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أهلى وعشيرتى، وأحب الناس إلى، ولا أراكم تتهمونى. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال: فاكتموا عنى قالوا: نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم مـا حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنيع الله تعالى لرسوله أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورؤوس غطفان إلى بنى قريظة، عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام، هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه.

فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثا فأصابهم ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهنا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة، حين انتهت إليهم الرسل بهذا، إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق؛ ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك، انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان، إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم،وبعث الله عز وجل الريح في ليلة شاتية شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم » [١].

---

(١) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ، ج٣، مرجع سابق، ص ١٥٨ - ١٦٠.

ولذلك أقر النبى ، ما صنعه خالد بن الوليد ﷺ، في غزوة مؤتة (٨هـ) عندما أخذ الراية، وحول الجيش ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، وتوهم الروم أن ذلك مدد جاء إلى المسلمين، فلما حمل عليهم خالد بن الوليد وحول الهزيمة إلى نصر بإذن الله، أثنى النبى عليهم، حين قال: " ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله عز وجل " .

بل إن رسول الله أسبغ على خالد بن الوليد، بأنه سيف من سيوف الله، عندما قال : " ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه " [١].

رابعاً: عدم الإجهاز على الجرحى:

إن الذى يحكم قوانين الحرب في سيرة رسول الله ، قانون الأخلاق العالية، وليس قانون الغابة، ولذلك " نهى رسول الله ، عن الإجهاز على جريح، كما نهى عن تعذيب القتلى، فإذا ضعفت قوة الجريح عن المقاومة، لا يجب الإجهاز عليه، لأن القتال ليس القصد منه الانتقام ولا شفاء حزازات الصدور، ولكن القصد منه دفع الاعتداء [٢].

وهذه الميزة الفريدة من نوعها، من مميزات الرسالة النبوية، فإن القائم عليها - وهو النبى - " يكون كالجراح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله " [٣].

ولذلك لما اشتد القتال يوم أحد، جلس رسول الله ، تحت راية الأنصار، وأرسل رسول الله إلى على بن أبى طالب رضوان الله عليه: أن قدِّم الراية. فتقدم على، فقال: أنا أبو الفُصم، ويقال: أبو القصم (أى المعضلات أو الدواهى)، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة، وهو صاحب لواء المشركين: أن هل لك يا أبو القصم في البراز من حاجة؟ قال: نعم. فبرز بين الصفين، فاختلفا ضربتين، فضربه علىٌ فصرعه، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه، فقال له أصحابه:أفلا أجهزت عليه؟ قال: إنه استقبلنى بعورته، فعطفتنى عنه الرحم، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله [٤].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٢٧٨ (بتصرف).
(٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، مج٢، مرجع سابق، ص ٥١٩.
(٣) محمد فريد وجدى: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ط١، القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٣، ص ١٦٣.
(٤) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ، ج٣، مرجع سابق، ص ١٥، ١٦.

المرحلة الثالثة (بعد القتال):

سيتناول الفصل الرابع - إن شاء الله - صور تطبيقية من الجوانب الخلقية للحرب في سيرة رسول الله . أما هنا فسيُكتفى فقط بالإشارة إلى أهم القواعد والضوابط الخلقية بعد الحرب أو القتال.

١ - الوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الخيانة فيها:

من الحقائق الثابتة، أن الإسلام أمر بالوفاء بكافة العهود والمواثيق وحرَّم الخيانة فيها، سواء في السلم أو في الحرب، سراً أو جهراً، ووضع لها شروطا محكومة بضوابط إلهية، بحيث يكون الإخلال بها غدرا وخيانة، " فإذا أخل طرف من الأطراف بشئ من التزاماته، أو ظاهر الأعداء - مثلا - بالمال أو السلاح، أو بالرأى أو بالتدبير، أو بالهجوم.. فإن المعاهدة تفقد حرمتها، وفى هذه الحالة يجب رد الظلم أو البغى دون إنذار أو إعلان، وهذا ما حدث عند فتح مكة، عندما اعتبر النبى ، مساعدة قريش لقبيلة بكر، ضد قبيلة خزاعة التى كانت في حلف مع رسول الله ، نقضا لما بينه وبينهم من عهد، فسار إليهم النبى ، وكان فتح مكة " [1].

فالعهود والمواثيق يجب أن تضمن الأمن والسلام بين الطرفين، ويجب الالتزام بجميع شروطها، " حتى إن الله سبحانه و تعالى لم يبح لنا أن ننصر إخواننا المسلمين من الأعراب غير الخاضعين لحكمنا على قوم من المعاهدين بيننا وبينهم ميثاق أو مهادنة.

كما استنبط " صاحب المنار " (٢٨) قاعدة في القتال والصلح والمعاهدات من خلال سورة الأنفال، واستنبط (١٣) قاعدة أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها، وفى الهدنة وتأمين الحربى للدخول في دار الإسلام من خلال سورة التوبة [2].

واعتبر المثل الذى ضربه القرآن، أبلغ مثل في الوفاء بالمعاهدات، وتحريم الخيانة فيها، بل إنه سمَّاه " أعجوبة القرآن في فساد معاهدات الزمان " أى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه،

---

(١) محمود شلتوت: الإسلام عقيدة وشريعة، القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦، ص ٤٦٤.
(٢) المرجع السابق، ج١٠، ص ٦١.

ثم تعود لتغزله مرة أخرى. فيجب أن تبنى العهود على المصداقية والعدل والمساواة، والإخلاص دون الدَخَل الذى يقصد به الفساد والغش الخفى، بأن تكون أمة هى أربى نفعا وأكثر عدداً وجمعا من الأمة الأخرى [1].

وقد أكد النبى ، أن عدم الوفاء بالعهود على اختلاف أشكالها، يعد من خصال المنافقين:

أخـرج البخـارى في صحيحـه، عن عبد الله بن عمرو، أن النبى ، قال: " أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حَّدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر " [2].

كما تشتمل تعاليم النبى ، على أحكام مفصلة لكل حالة من الحالات التى تعرض بين المتحاربين في أثناء القتال أو بعده، وهى حالات الأمان، والاستئمان، والمهادنة، والموادعة، والصلح على معاهدة.

- فالأمان: هو رفع استباحة الحربى ورقه وماله حين قتاله أو العزم عليه.

- والاستئمان: هو تأمين حربى ينزل لأمر ينصرف بانقضائه.

- والمهادنة: هى عقد لمسلم مع حربى على المسالمة مدة ليس هو فيها على حكم الإسلام.

- والموادعة: عقـد غير لازم محتمل النقض، للإمام أن ينبذه ويشترط في حالة النبذ أن يُبلِّغه القائد إلى جنده، وإلى الأعداء، وهم على حكم الأمان حتى يعلموا بانتهاء الموادعة.

- أما الصلح على معاهدة: فأشهرها صلح الحديبية.

والوفاء بالشروط المتفق عليها في كل حالة من هذه الحالات السابقة، فريضة مؤكدة بنصوص القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله [3].

---

(١) محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى، مرجع سابق، ص ٢٦٥.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـــيخان، ج٣٧/١، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص ١٢.

(٣) عباس محمود العقاد: حقائق الإســلام وأباطيل خصــومه، مرجع ســابق، ص ٢٣٩، ٢٤٠.

ويرى بعض الباحثين أن هناك ثلاثة أنواع من الأمان والهدنة:

أ - الأمان المؤقت الخاص:

ويمكن أن يقوم به جندى مسلم إذا استسلم له أحد جنود العدو وطلب منه الأمان، أو إذا استسلمت جماعة من جنود العدو إلى جماعة من جند المسلمين، ففى هاتين الحالتين يجوز للجندى المسلم أو لقائد جماعة المسلمين أن يمنحوا الأمان للمستسلمين إذا رأوا وأحسوا أن فيه مصلحة للمسلمين، كالحصول على أسلحة منهم قبل تدميرها، أو الحصول على أسرى، أو الحفاظ على عتاد المسلمين وأرواحهم. ومن هنا يأتى ما يسمى " المستأمن " وهو شخص أُعطى الأمان، وله بهذا الأمان حق في إقامة غير دائمة، وله حق الأمن حتى يصل إلى مأمنه،

ب - أما الأمان المؤقت العام:

فلا يبذله إلا الإمام أو نائبه، ويكون لكل الجيش، وهو جائز ما دام الإمام قد رأى فيه مصلحة للمسلمين، وهو الذى يسمى الهدنة، وقد يتحدد لها وقت، وقد تكون مطلقة، ومنها الهدنة التى وافق عليها النبى في الحديبية، وإذا أحس المسلمون خيانة من العدو، أو وجدوا أنه انتهز فرصة الهدنة لمزيد من الاستعداد الذى يهدد المسلمين كان لهم نقضها.

ويشترط في العقود التى يجب احترامها والوفاء بها ما يلى: -

ألا تخالف حكما من الأحكام الشرعية المتفق عليها.

أن تكون عن رضا واختيار، فإن الإكراه يسلب الإرادة، ولا احترام لعقد لم تتوفر فيه حرية الإرادة.

جـ - والأمان الدائم:

يكون مع أهل الذمة من أهل الكتاب ومع مشركى غير العرب، ويعقده الإمام أو نائبه، وبمقتضاه يلتزم أهل الذمة بواجبات، وتكون لهم حقوق لدى المسلمين، ومن أهم واجباتهم الوفاء لعهد الأمان بشروطه، وألا يمسوا المسلمين بضرر، أو يعاونوا أعداء المسلمين، وأن يحترموا المقدسات الإسلامية، وأن يتبعوا القوانين الشرعية فيما أبيح لهم وفى التزاماتهم. وأما حقوقهم فتشمل حرية التدين، والدفاع عنهم، وجواز أكل طعامهم.. إلى غير ذلك [١].

---

(١) أحمد شـــلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإســـلامى، مرجع ســـابق، ص ١٩٥ - ١٩٨(بتصرف).

مثل يحتذى به للأمان الدائم:

وفي كتاب رسول الله ، لوفد نصارى نجران، والذى تضمن الأمان الدائم لهم، ما يدل على أسمى درجات التسامح والتكريم، وهكذا الحال في سيرة رسول الله ، في كل عهوده ومواثيقه:

.. ولنجران وحسبها جوار الله وذمة محمد النبى على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وتبعهم، وأن لا يُغيِّروا مما كانوا عليه، ولا يغيِّر حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يُغيِّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا وافه عن وفهيِّته، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم ريبة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون (لا يكلفـون بالجهـاد) ولا يعشرون (لا يدفعون الزكاة)، ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقا فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل ربا من ذى قبل، فذمتى منه بريئة، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر، وعلى ما في هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمـد النبى رسول الله حتى يأتى الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منقلبين بظلم. شهد أبو سفيان بن حرب، وغيلان بن عمرو، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس الحنظلى، والمغيرة بن شعبة " [١].

* * *

٢ - احترام كرامة العدو حتى بعد قتله:

إن جيش الفضيلة والرحمة بقيادة رسول الله ، لا تقتصر رحمته أثناء القتال فقط، بل تمتد إلى بعد القتال أيضا، فإذا كان المشركون في غزوة أحد، مثلوا بسيد الشهداء (حمزة بن عبد المطلب) وعم رسول الله - كما هو معروف - وإذا كنا نسمع ونقرأ ونرى في عصرنا الحاضر تشويه جثث القتلى، وتركها أياما دون أن توارى، فإن رسول الله هو المثل الكامل في الفضيلة واحترام الإنسان حيا وميتا.

ولذلك لا غرابة أبدا أن نجد النبى ، يأمر بدفن قتلى المشركين من قريش يوم بدر، حتى لا يترك جثثهم نهبا للوحوش أو سباع الطير. فقد ذكر ابن هشام، " أن رسول الله ، أمر بالقتلى أن يطرحوا في القليب (بئر جافة) فلما ألقاهم في القليب، وقف عليهم رسول الله ، فقال: " يأهل القليب. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا " [٢]

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٦٣٥.

(٢) ابن هشام: ج٢، مرجع سابق، ص ٢٢٨.

٣ - الرحمة في معاملة الأسرى:

لا يعرف تاريخ الإنسانية قائدا عسكريا كان رفيقا ورحيما بأسراه كرسول الله ، " فقد كان يوصى بالأسرى خيرا، وفى غزوة بدر، نزل الأسرى في بيوت الأنصار، وكأنهم في ضيافة لا في أسر، والتزاما لتعاليم النبى ، كان المسلمون يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام والشراب.

والإسلام يوجب للأسير أمرين:

الأول: أنه ليس لجيش الإسلام أن يأسر حتى يثخن في الأرض، بأن يثقل جيش العدو بالجراح، ولا تكون له قدرة على مواصلة القتال.

الثانى: أن رسول الله يأتمر بأمر القرآن الكريم، بالنسبة للأسرى في أمرين لا ثالث لهما:

أ- إما المن عليهم بإطلاق سراحهم.

ب - وإما الفداء بالمال أو الرجال [١].

وقد يكون الفداء بالعمل، فقد روى أنه " كان ناس من الأسرى لم يكن لهم مال، فجعل رسول الله فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة[٢].

٤ - الجزية مبدأ إسلامى ليس له مثيل:

سيرد في الفصل الخامس من هذا البحث، دحض شبهة الجزية من خلال كتابات علماء من غير المسلمين، وسأكتفى هنا فقط بمشروعية الجزية وأهم الأمور التى تتعلق بها.

ففى الأمان الدائم - كما تمت الإشارة من قبل - " يلتزم أهل الذمة أن يدفعوا الجزية، والجزية دليل أمان،أما رفضها ورفض الإسلام فدليل على نية الاعتداء " [٣]

ورسول الله لم يأخذ الجزية إلا بعد نزول (سورة براءة) في السنة الثامنة من الهجرة، فلما نزلت آية الجزية، أخذها من المجوس، واليهود، والنصارى، بل أجاز بعض الفقهاء أخذها من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار كعبدة الأصنام من العجم دون العرب،

---

(١) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ، مج٢، مرجع سابق، ص ٥٢٣، ٥٢٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ١١٢.

(٣) أحمد شلبى: العلاقات الدولية في الفكر الإسلامى، مرجع سابق، ص ١٩٨.

وهذا قول أبي حنيفة، وأحمد في بعض رواياته، ويقولون: إنما لم يأخذها النبى من مشركى العرب، لأنها إنما نزل فرضها بعد أن أسلمت دارة العرب، ولم يبق فيها مشرك، فإنها نزلت بعد فتح مكة، ودخول العرب في دين الله أفواجا، فلم يبق بأرض العرب مشرك.

ولما وجه النبى معاذا إلى اليمن، أمره أن يأخذ من كل محتلم دينارا أو قيمته من المعافرى، وهى ثياب تكون باليمن. وفى هذا دليل على أن الجزية غير مقدرة الجنس، ولا القدر، بل يجوز أن تكون ثيابا وذهبا وحللا، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين، واحتمال من تؤخذ منه، وحاله في الميسرة، وما عنده من المال [1].

والجزية ليست عقابا - كما يزعم البعض - إنما هى لأمرين:

إظهار الطاعة للحاكم المسلم، وإمام المسلمين غير مضارين في دينهم، ولا مغيرين لعقائدهم ومبادئهم الدينية، ولا مرهقين في أمرها.

ب - أن تكون في مقابل ما يفرض على المسلمين من فرائض مالية ليسهموا بها في بناء المجتمع الإسلامى، فالمسلم يفرض عليه بحكم الإسلام أداء الزكاة، وتوزعها الدولة على الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل.. والمسلم عليه كذلك زكاة الفطر، وكفارات النذور والأيمان و القتل الخطأ، والظهار، وفدية الصيام وكفارته، وكل هذه مغارم تصرف لعلاج آفات الفقر في المجتمع كله.

- ويلاحظ في الجزية التى أمر بها النبى ثلاثة أمور:

أ - أنها لم تكن معينة في جنس، بل كان يعين على أساس التيسير عليهم، فإن كانوا تتيسر عليهم الدنانير فهى الأصل في التقدير، وإن لم تتيسر الدنانير، وتيسرت الثياب أو غيرها أخذ مما يتيسر عليهم أداؤه.

ب - أنها ليست المقدار في الجماعة، بل تزيد وتنقص على حسب حاجة المسلمين، وقدرة من يعطونها.

جـ - أن تسقط أو تدفع جملة على حسب طاقة الدافعين من غير إفراط ولا تفريط (

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سـابق، ص ١٥١ - ١٥٦(بتصرف).

[1].وإضافة إلى ما سبق، فإن ذلك يفتح الطريق لاهتدائهم إلى الإسلام، فإن لم يسلموا كان الاتحاد بين الجميع بالمساواة في العدل، ووجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين، ويحرم ظلمهم، وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون كالمسلمين، ويسمون (أهل الذمة).

وأما الذين يعقد الصلح بينهم بعهد وميثاق، يعترف به كل طرف باستقلال الآخر، فيسمون: (بأهل العهد والمعاهدين).

كما أن الجزية في حقيقتها جزاء على المنعة والحماية، تدوم بدوامها، وتمتنع بزوالها. فهذا هو (خالد بن الوليد) - وهو من أصحاب رسول الله ، ومن أعلم الناس بمقاصد الشريعة - يكتب لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات: " إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة، فلك الذمة، والمنعة، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا " [2].

٥ - أسمى أخلاق التسامح إذا استسلم العدو:

إن سيرة النبى ، لا يرقى إليها أى مطعن في أخلاق التسامح إذا استسلم العدو وألقى السلاح، فعلى المسلمين أن يكفوا عن القتال فورا، حتى يرى الإمام رأيه فيهم، وخير مثال لذلك هو صاحب الخلق العظيم، ، حين قال للآلاف يوم فتح مكة - كما هو مشهور - اذهبوا فأنتم الطلقاء!

فليقارن من يريد أن يقارن بين هذا الموقف، وبين أى موقف لقائد على مر التاريخ القديم أو الحديث. فهل يجد وجه للمقارنة؟!!

* * *

---

(١) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، مج٣، مرجع سابق، ص ٨٢٢، ٨٢٦ (بتصرف).
(٢) محمد رشيد رضا: الوحى المحمدى، مرجع سابق، ص ٢٧٤.

الفصل الرابع

صور تطبيقية من الجوانب الخلقية للحرب

في السيرة النبوية

نأتى للحديث مباشرة عن صور تطبيقية من هذه الجوانب الخُلقية في سيرة رسول الله

وتجدر الإشارة إلى أن غزوات النبى ، وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدة عشر سنين، " فالغزوات سبع وعشرون، وقيل: خمس وعشرون؛ وقيل: تسع وعشرون... وقيل غير ذلك. قاتل منها في تسع (بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف) وقيل: قاتل في بنى النضير والغابة ووادى القرى من أعمال خيبر.

وأما سراياه وبعوثه : فقريب من ستين، والغزوات الكبار الأمهات سبع (بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك).

وجرح منها في غزوة واحدة وهى أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر، وحنين، ونزلت يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة، وهى الطائف، وتحصن في الخندق في واحدة، وهى الأحزاب أشار به عليه سلمان الفارسى ﷺ [(1)]. ولما كان هذا البحث يسير وفق إطار محدد - وهو سيرة رسول الله - فسوف يتم التركيز على الغزوات التى اشترك فيها النبى .

صور أخلاقية مشرقة في غزوة بدر:

كان أبو عزيز بن عمير، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، في الأسارى يوم بدر، وكان أبو عزيز هذا صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث، " فحين أقبل النبى بالأسارى فرقهم بين أصحابه وقـال: " استوصوا بهم خيراً ". قال أبو عزيز: مرَّ بى أخى مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرنى، فقال شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك " قال أبو عزيز: فكنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر، فكانوا إذا قدموا غذاءهم وعشاءهم خصونى بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحنى بها، فأستحى فأردها على أحدهم فيردها علىَّ ما يمسها [(2)].

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج١، مرجع سـابق، ص ١٢٩، ١٣٠.

(٢) ابن هشام: ج٢، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

روت كتب السيرة، وكذلك الصحاح، أن عمر بن الخطاب (ﷺ) عنه، قال لرسول الله : دعنى أنزع ثنية سهيل بن عمرو يدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا. فقال رسول الله : " لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا " ثم قال لعمر: إنه عسى أن يقوم مقاما لا تذمه. وقد أسلم سهيل بن عمرو فيما بعد وحسن إسلامه، وثبّت الناس على الدين الحنيف يوم وفاة رسول الله . [(١)].

لما أمسى القوم من يوم بدر، والأسارى محبوسون في الوثاق، بات رسول الله ساهرا أول ليلته، فقال له أصحابه: يا رسول الله مالك لا تنام؟ فقال: " سمعت تضور العباس في وثاقه "؛ فقاموا إلى العباس فأطلقوه، فنام رسول الله [(٢)].

ذكر ابن هشام، وصاحب البداية والنهاية، أن " عمير بن وهب جلس مع صفوان بن أمية في الحجر بعد مصاب أهل بدر، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.. فقال عمير: أما والله لولا دين على، ليس عندى قضاؤه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى فيهم علة، ابنى أسير في أيديهم.

فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: علىَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم مابقوا، لا يسعنى شئ ويعجز عنهم. فقال له عمير: فاكتم على شأنى وشأنك، قال: سأفعل، قال: ثم أمر عمير بسيفه فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة، فلما رآه عمر بن الخطاب متوشحا السيف، فقال هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر... فأقبل عمر بن الخطاب حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه.. ثم دخل به على رسول الله ، فلما رآه رسول الله وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: " أرسله يا عمر، أدن يا عمير " فدنا،... ثم قال له: " فما جاء بك يا عمير؟ " قال: جئت لهذا الأسير الذى في أيديكم، فأحسنوا فيه، قال: " فما بال السيف في عنقك " قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت شيئا؟ قال: " أصدقنى ما الذى جئت له " قال: ما جئت إلا لذلك،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

(٢) أبى الفرج الأصفهانى: كتاب الأغانى، مج٤، بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٥، ص ٢٠٩.

قال رسول الله : " بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك " فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فو الله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق. ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول الله : " فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره " [1].

مثل أخلاقى يحتذى به في حفظ الجميل :

روى أبو داود، عن الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، أن رسول الله ، قال لأسارى بدر: " لو كان مطعم بن عدى حيا ثم كلمنى في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له " [2].

ورغم أن " مطعم بن عدى " كان مشركا، وأن مسألة الأسرى حدث فيها مشاورات كثيرة - كما ذكرت من قبل - وأنزل الله عز وجل في هذا الأمر الهام قرآنا، إلا أن رسول الله قال ذلك في شأن هذا الرجل المشرك، الذى كان له هذه المكانة الكبيرة في قلب رسول الله .

فعند عودة النبى ، من الطائف قبل الهجرة " أرسل إلى الأخنس بن شريق، فطلب منه أن يجيره بمكة. فقال: إن حليف قريش لا يجير على صميمها، ثم أرسل إلى سهيل بن عمرو ليجيره فقال: إن بنى عامر بن لؤى لا تجير على بنى كعب بن لؤى. فأرسل إلى المطعم بن عدى ليجيره فقال: نعم، فذهب إليه رسول الله ، فبات عنده تلك الليلة، فلما أصبح خرج معه هو وبنوه ستة - أو سبعة - متقلدى سيوفهم في المطاف،

---

(١) ابن هشام: ج٢، مرجع سابق، ص ٢٥٠، ٢٥١. - وأيضاً: ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٤٩، ٣٥٠.

(٢) أبو داود: سنن أبى داود، مج٢، ج٣/٢٦٨٩، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٦١.

فأقبـل أبـو سفيان إلى مطعم. فقال: أمجير أم تابع؟ قال: لا. بل مجير. قال إذا لا تخفر(لا يعتدى أحد على من أجرته)فجلس معه حتى قضى رسول الله طوافه، فلما انصرف انصرفوا معه، وذهب أبو سفيان إلى مجلسه... وقال حسان ابن ثابت فيه شعرا رثاءً له بعد وفاته. ولهذا قال النبى : " لو كان المطعم بن عدى حيا، ثم سألنى في هؤلاء النقباء لوهبتهم له " [1].

وفى غزوة أحد: رغم هذه الفعلة النكراء، التى لم يسبق لها مثيل، وهو التمثيل بسيد الشهداء، حمزة بن عبد المطلب ﵁، وعم رسول الله ، فخلق النبى ، العظيمة، تمنعه حتى من الدعاء على المشركين، بل إنه ، يدعو لهم بالمغفرة.

أخرج البخارى في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود ﵁، قال: كأنى أنظر إلى النبى يحكى نبيا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: " اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون " [2]. فإذا كانت هناك مواقف يفقـد فيها الرحماء رحمتهم، فإن رسول الله ، لا تفارقه رحمته في سلمه أو حربه.

وفى غزوة بنى المصطلق:

١ - أخرج البخارى في صحيحه - في كتاب المغازى، باب غزوة بنى المصطلق - عن جابر بن عبد الله، قال: غزونا مع رسول الله غزوة نجد، فلما أدركته القائلة (شدة الحر)، وهو في واد كثير العضاه (شجر عظيم له شوك)، فنزل تحت شجرة، واستظل بها، وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله فجئنا، فإذا أعرابى قاعد بين يديه. فقال: " إن هذا أتانى وأنا نائم فاخترط سيفى (أى سلـه) فاستيقظت وهـو قائـم على رأسى، مخترط صَلْتاً (أى مجردا من غمده) قال: من يمنعك منى؟ قلت: الله! فشامه (أغمده)، ثم قعد فهو هذا " قال: ولم يعاقبه رسول الله . [3].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ١٥٧.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١١٦٩/٢، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

(٣) المرجع السابق، ج١٤٧٠/٣، كتاب الفضائل، ص ٩٢.

٢ - المن على جميع الأسرى والسبايا:

لما انصرف النبى من غزوة بنى المصطلق - كما ذكر ابن هشام - ومعه جويرية بنت الحارث، وكان بذات الجيش، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة، وأمره بالاحتفاظ بها، وقدم رسول الله المدينة، فأقبل أبوها الحارث بن أبي ضرار بفداء ابنته، فلما كان بالعقيق، نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء، فرغب في بعيرين منهما، فغيبهما في شعب من شعاب العقيق، ثم أتى إلى النبى ، وقال: يا محمد، أصبتم ابنتى، وهذا فداؤها، فقال رسول الله : " فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق،.. في شعب كذا وكذا؟ " فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك محمد رسول الله، فو الله ما اطَّلع على ذلك إلا الله، فأسلم الحارث، وأسلم معه ابنان له، وناس من قومه، وأرسل إلى البعيرين، فجاء بهما، فدفع الإبل إلى النبى ، ودُفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت، وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ، إلى أبيها، فزوجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم " [(١)].

ويميل الكثير من الباحثين المدققين إلى هذه الرواية، " لأنها أكثر انسجاما، واتساقا مع أحكام الإسلام من الروايات الأخرى، إذ أن وليها (أبوها) هو الذى زوجها، وذلك مبدأ مقرر في الإسلام، ولم يجز للمرأة أن تعقد زواجها بنفسها إلا أبو حنيفة، وخالفه جمهور الفقهاء " [(٢)].

- وبعد غزوة خيبر: كيف قابل النبى غدر وخيانة امرأة سلام بن مشكم اليهودى - والتى حاولت قتله بالسم، واعترافها بذلك - بهذا التسامح الكبير، والعفو عنها بعد كل ذلك

- فتح مكة وخلق التسامح في أبهى صوره:

١ - أعظم عفو عرفه العالم:

ويتلخص هذا العفو الشامل؛ الذى يعتبر أعظم عفو في تاريخ الإنسانية، في ثلاث كلمات فقط " اذهبوا فأنتم الطلقاء " ما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو! وارتفعت فوق الحقد والانتقام!

---

(١) ابن هشام: ج٣، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٢) محمد أبو زهرة: خاتم النبيين ﷺ، مج٢، ص ٧٢٦.

لقد نسى النبى ، سنوات طويلة من الاضطهاد، والتعذيب، ومحاولة قتله عشرات المرات، ونسى المقاطعة الرهيبة القاسية، ونسى يوم أحد، ويوم الأحزاب، واتهامه بالكذب، والسحر، والجنون.... وقريش الآن في قبضة يده، وحياة الآلاف منهم معلقة بكلمة واحدة منه، ويستطيع أن يبيد قريش جميعها، وهو محق في ذلك كل الحق! لكنه رسول الله ، صاحب الخلق العظيم، فليس للعداوة والانتقام مكانا في قلبه، وليس هو بالجبار أو المتكبر، فضرب بكلمات ثلاث، للعالم كله، وللإنسانية جمعاء مثلا كاملا في العفو والوفاء والتسامح والرحمة.

فقد ذكر ابن هشام وغيره، أن رسول الله ، قال يوم فتح مكة: يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل فيكم "؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم؛ قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء " (1).

ولا عجب في ذلك، لأن صفة الرحمة وعدم الانتقام من الصفات التى كانت ملازمة لرسول الله ، سواء قبل البعثة، أو بعد البعثة.

أخرج البخارى في صحيحه، عن عائشة رضى الله عنها، أنها قالت: ما خير رسول الله بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثما. فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها " (2).

٢ - تواضع صاحب الخلق العظيم وقت النصر:

فلم يدخل النبى مكة كما يدخل الفاتحون في كبريائهم وخيلائهم وجبروتهم، بل دخل ، متواضعا، خاشعا، شاكرا لله عز وجل، على ما أنعم به من هذا الفتح المبين، وهذا الفضل العظيم، فدخل مكباً على رحل ناقته، " حتى أن عثنونه (لحيته) ليكاد يمس واسطة الرحل " (3).

---

(١) ابن هشام: ج٣، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١٥٠٢/٣، كتاب الفضائل، مرجع سابق، ص ١٠٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

وقد بلغ من حرص رسول الله ، على صون الدماء، أن خلع سعد ابن عبادة من الإمارة، وأسلمها إلى ابنه قيس بن سعد، حين بلغه أن سعدا قال يتوعد قريشا عند دخوله مكة: " اليوم يوم الملحمة! اليوم تستحل الحرمة " فقال النبى : " بل هذا يوم تعظم فيه الكعبة " وأمر بالراية أن تؤخذ من سعد بن عبادة كالتأديب له، ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد " [1].

٣ - لا تثريب عليكم اليوم:

ذكر ابن سعد - في الطبقات الكبرى - عن الزهرى، عن بعض آل عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم الفتح ورسول الله ، بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية بن خلف، وإلى أبي سفيان بن حرب، وإلى الحارث بن هشام. قال عمر: قلت قد أمكن الله منهم أعرفهم بما صنعوا، حتى قال النبى ، مثلى ومثلكم، كما قال يوسف لإخوته وهو أرحم الراحمين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم) قال عمر: فانفضحت حياءً من رسول الله ، كراهية لما كان منى، وقد قال لهم رسول الله ، ما قال [2].

وقد صفح النبى ، هذا الصفح الجميل، رغم علمه التام بأن أبي سفيان كان هو قائد المشركين يوم أحد، وقائد الأحزاب يوم الخندق، ومحرض القبائل على حرب المسلمين. بل إن رسول الله ، عندما قال له العباس، " إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئا. فقال النبى : " نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن " [3]. أما (صفوان بن أمية) فكان عدوًا لرسول الله ، وكان أبوه أمية بن خلف من أشد أعداء النبى . " فلما فتح رسول الله مكة، هرب صفوان بن أمية إلى جُدَّة، فأتى عمير بن وهب بن خلف، وهو ابن عم صفوان، إلى رسول الله ، ومعه ابنه وهب بن عمير، فطلبا له أمانا من رسول الله ، فأمنه، وبعث إليه بردائه، وقيل بعمامته التى دخل بها مكة أماناً له [4].

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٢٩.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج٢، مرجع سابق، ص ١٤١، ١٤٢.

(٣) ابن هشام: ج٤، مرجع سابق، ص ١٦.

(٤) ابن الأثير الجزرى، عز الدين أبو الحسن على بن أبى الكرم: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٣، القاهرة: دار الشعب، ١٩٧٠، ص ٢٤.

٤ - حتى الذين يجب قتلهم شملهم العفو:

لما استقر الفتح، أمَّن رسول الله ، الناس كلهم إلا تسعة نفر من المشركين، فإنه أمر بقتلهم، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان لابن خطل، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب.

- فأما ابن أبي سرح، فكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثم ارتد، ورجع إلى مكة، فجاء به عثمان بن عفان، فاستأمن له رسول الله ، فقبل منه النبى [١].

- وأما عكرمة بن أبي جهل، فكان شديد العداوة لرسول الله ، فلما فتح رسول الله ، مكة، هرب عكرمة بن أبي جهل ولحق باليمن، فسارت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام إليه وهو باليمن، وكانت أسلمت قبله يوم الفتح، وأخبرته بأمان رسول الله ، فجاء إلى رسول الله ، فأسلم وحسـن إسلامه [٢].

- وأما هبار بن الأسود، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ،حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر وهرب [٣]، ثم جاء إلى رسول الله ، وقال له: يا رسول الله هربت منك، وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح الصفح الجميل، فقال عليه الصلاة والسلام: قد عفوت عنك [٤].

- كما استُؤمن رسول الله ، لسارة ولإحدى القينتين، فأمنهما فأسلمتا [٥].

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٤١١.

(٢) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج٤، مرجع سابق، ص ٧٠، ٧١.

(٣) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٤١١.

(٤) محمد الخضرى: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ط٣، بيروت: دار القلـــــم، ١٩٨٥، ص ١٨٣.

(٥) ابن قيم الجوزية، ج٣، مرجع سابق، ص ٤١١.

٥ - العفو عن سهيل بن عمرو ووحشى قاتل حمزة:

وقد ذكرت في الفصل الثانى من هذا البحث، ما كان من أمر سهيل بن عمرو حين كان يفاوض النبى ، في صلح الحديبية، وهذا الموقف الشديد لصحابة رسول الله .. وكان سهيل بن عمرو من الذين اختفوا بعد فتـح مكة، فاستأمن له ابنه عبد الله، فأمَّنه النبى ، وقال: إن سهيلا له عقل وشرف، وما مثل سهيل يجهل الإسلام، فلما بلغت هذه المقالة سهيلا قال: كان - والله - برًا صغيراً، برًا كبيراً. ثم أسلم بعد ذلك [(١)].

وأما وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب، وعم رسول الله ، فأمَّنه النبى ، وأسلم هو الآخر، وحسن إسلامه.

كما جاء ابنا أبي لهب (عتبة ومعتب) فأسلما، وفرح بهما النبى [(٢)].

٦ - استجابة النبى لإجارة أم هانئ:

جاء في الصحاح، وكذلك كتب السيرة، أن أم هانئ بنت أبي طالب فر إليها رجلان من بنى مخزوم عام الفتح فأجارتهما، تقول: قلت يا نبى الله كنت أمنت رجلين من أحمائى، فأراد على قتلهما، فقال رسول الله " قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ، وأمَّنا من أمَّنت " [(٣)].

٧ - موقف أخلاقى عظيم مع عثمان بن طلحة:

كان عثمان بن طلحة يحمل لواء المشركين يوم الخندق، وكان قد أغلظ القول لرسول الله ، قبل الهجرة، ونال منه، وقد أسلم قبل الفتح مع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص. فلما كان يوم الفتح، قال رسول الله : " أين عثمان بن طلحة "؟ فدعى له، فقال: " هاك مفتاحك يا عثمان؛ اليوم يوم بر ووفاء.

---

(١) محمد الخضرى: نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، مرجع سابق، ص ١٨٥.
(٢) المرجع السابق: ص ١٨٥.
(٣) ابن هشام: ج٤، مرجع سابق، ص ٢٤.

أما ما جعل النبى يقول لعثمان بن طلحة " اليوم يوم بر ووفاء " هو ما يرويه عثمان بن طلحة بنفسه، عن موقفه من رسول الله بمكة قبل الهجرة حين أغلظ له القول، ونال منه، فحلم عنه النبى . يقول عثمان ابن طلحة: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين، والخميس، فأقبل رسول الله ، يوما يريد أن يدخل الكعبة مع الناس، فأغلظت له، ونلت منه، فحلم عنى، ثم قال: " يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: " بل عمرت وعزت يومئذ ، ودخل الكعبة، فوقعت كلمته منى موقعا يوم الفتح، قال: " يا عثمان ائتنى بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه منى، ثم دفعه إلىَّ وقال: خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف ". قال: فلما وليت، نادانى، فرجعت إليه فقال: " ألم يكن الذى قلت لك؟ " قال: فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: " لعلك سترى هذا المفتاح بيدى أضعه حيث شئت ، فقلت: بلى، أشهد أنك رسول الله [(١)].

٨ - حتى دور المهاجرين لم يردها إليهم النبى :

وهو موقف أخلاقى يثير الدهشة والعجب! " لما فتح النبى مكة، قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم التى استولى عليها المشركون فلم يَرُد على واحد منهم داره، وذلك لأنهم تركوها لله، وخرجوا عنها ابتغاء مرضاته، فأعاضهم دورا خيرا منها في الجنة،فليس لهم أن يرجعوا فيما تركوه لله [(٢)].

بل إن رسول الله ، بلغ من ذلك الموقف، أنه لم يرخص للمهاجر أن يقيم بمكة بعد نسكه أكثر من ثلاث، لأنه قد ترك بلده لله، وهاجر منه، فليس له أن يعود يستوطنه، ولهذا رثى النبى ، لسعد بن خولة، وسمَّاه بائسا أن مات بمكة، ودفن بها بعد هجرته منها.

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، ج٣، مرجع سابق، ص ٤٠٩.
(٢) المرجع السابق: ج٣، ص ١١٦.

أخرج البخارى في صحيحه، عن العلاء بن الحضرمى، قال: قال رسول الله : " ثلاث للمهاجر بعد الصدر " [١].

كما أخرج البخارى أيضا، من حديث سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله ، قال: "......اللهم أمضى لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم، لكن البائس سعد بن خولة، يرثى له رسول الله أن مات بمكة " [٢].

٩ - العفو عن فضالة بن عمير:

أراد فضالة بن عمير بن الملوح قتل النبى ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه، قال رسول الله : " أفضالة؟ " قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال: " ماذا كنت تحدث به نفسك؟ ". قال: لا شئ، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبى ، ثم قال: " أستغفر الله " ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شئ أحب إليَّ منه [٣].

١٠ - الأمان لكعب بن زهير:

كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ، يعفو عمن أساء إليه من الشعراء الذين آذوه بالهجاء.. فخرج كعب بن زهير حتى قدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة، من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ، حين صلى الصبح، فصلى مع رسول الله ، ثم أشار له إلى رسول الله، فقال: هذا رسول الله، فقم إليه فاستأمنه، فقام إلى رسول الله حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ، لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله : " نعم " ، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير [٤]

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشـيخان، ج٢/٨٥٨، كتاب الحج، مرجع سابق، ص ٧٧.
(٢) المرجع السابق، ج٢/١٠٥٣، كتاب الوصية، ص ١٦٤.
(٣) ابن هشام: ج٤، مرجع سابق، ص ٢٩، ٣٠.
(٤) ابن هشام: ج٤، مرجع سابق، ص ١٠٥، ١٠٦.

١١ - المنُّ على ثمانين رجلا بغير فداء:

روى أبو داود، عن أنس ﷺ، أن ثمانين رجلا من أهل مكة هبطوا على النبى ، وأصحابه من جبال التنعيم عند صلاة الفجر ليقتلوهم، فأخذهـم رسول الله سَلْما، فأعتقهم رسول الله ، فأنزل الله عز وجل: وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا

- موقف أخلاقى كريم بعد غزوة حنين (وتسمى أوطاس وهوازن):

عندما انصرف النبى ، من هذه الغزوة (٨هـ)، نزل بالجعرانة فيمن معه من الناس، ومعه من هوازن سبى كثير، وقد قال له رجل من أصحابه يوم ظعن عن ثقيف: يا رسول الله، ادع عليهم؛ فقال رسول الله : " اللهم اهد ثقيفا وأت بهم " [(١)].

يقول ابن هشام - نقلا عن ابن اسحاق -: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منَّ الله عليك. قال: وقام رجل من هوازن، يقال له زهير، يكنى أبا صُرد، فقال: يا رسول الله، إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين. فقال رسول الله : " أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم "؟ فقالوا: يا رسول الله، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا؛ فقال لهم: " أما ما كـان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وإذا أنا صليت الظهر بالناس، فقوموا فقولـوا: إنا نستشفع برسول الله في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسال لكم "، فلما صلى رسول الله بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذى أمرهم به، فقـال رسول الله : " وأما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ". فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله . وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا.

---

(١) ابن هشام: ج٤، مرجع سابق، ص ٩٢.

وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله .

فقال عباس بن مرداس لبنى سليم: " وهنتمونى ". فقال رسول الله : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى، فله لكل إنسان ست فرائض، من أول سبى أصيبه. فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم [(١)].

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص ٩٢، ٩٣.

الفصل الخامس

شبهات وافتراءات زائفة حول القتال في السيرة النبوية المطهرة

دحض الشبهة الأولى (وهى حول مشروعية القتال لرسول الله)

وهذه الشبهة وغيرها - مما سيأتى بيانه - كثيراً ما يثيرها أعداء الإسلام، حين يزعمون أن الإسلام دين شُرع فيه القتال، وأن الدين الحق - بزعمهم - يجب أن يدعو إلى السلام، ولا يجوز أن يعتمد على الحرب لأنه دين إلهى أنزل ليكون رحمة للناس كافة.

لا جرم أن الذين يثيرون هذه الشبهة وغيرها، لا يدركون ولا يعرفون أن رسول الله ، هو المثل الأوفى للسلام - كما ذكرت في الفصل الثانى من هذا البحث - كما أنهم يجهلون أو يتجاهلون تاريخ الشرائع والأديان السماوية، ومن المؤكد كذلك أنهم لا يعرفون من طبيعة البشر والعالم الأرضى ما يجب أن يعرفوه حتى يأتى حكمهم صائبا، وما عليهم إلا أن ينظروا نظرة واحدة في بعض نصوص الكتب السماوية التى بين أيديهم حتى يعلموا أن رسول الله ، لم يكن بدعا من الرسل في مشروعية القتال، وهو صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية، ومأمور من قبل الله عز وجل أن يبلغها للناس كافة! وما عليهم بعد ذلك إلا أن يقارنوا ما يوجد من نصوص سماوية سابقة في شأن القتال، بما شرعه الله عز وجل لرسول الله ، وبالقواعد والضوابط الأخلاقية للقتال في سيرة رسول الله !.

١ - من ناحية مشروعية القتال في الأديان السابقة:

هناك عشرات النصوص المسجلة في العديد من الأسفار - سواء في العهد القديم أو الجديد - تتحدث عن الحرب والقتال والسيف، مما يدل دلالة قاطعة على أن هذه المفاهيم ليست كريهة من وجهة نظر التوراة والإنجيل - كما سجلوها - " بل إن الحروب كانت تتم دائما بمباركة الرب ومعونته، حتى إنه استل السيف من غمده فلا يعود أبدا "! [١].

وهذه بعض النصوص على سبيل المثال وليس الحصر: -

- ففى العهد الجديد (إنجيل متى): نجد النص الصريح التالى:

---

(١) على جمعة: شـــبهات وإجابات حول الجهاد في الإســـلام، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢، ص ٣٥.

" لا تظنوا أني جئت لألقى سلاماً على الأرض، ما جئت لألقى سلاما بل سيفا فإنى جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها والكنة مع حماتها وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته " [1].

- وفى العهد القديم (التوراة) نجد النصوص التالية:

* نجد في سفر حزقيال: " وكان إلى كلام الرب قائلا: يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلم عن المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب هأنذا عليك وأستل سيفى من غمده فأقطع منه الصديق والشرير من حيث إنى أقطع منك الصديق والشرير فلذلك يخرج سيفى من غمده على كل بشر من الجنوب إلى الشمال فيعلم كل بشر أنى أنا الرب سللت سيف من غمده لا يرجع أيضا " [2].

* وفى سفر القضاة:

" وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوا بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار وبعد ذلك نزل بنو يهوذا لمحاربة الكنعانيين سكان الجبل وسكان الجنوب والسهل " [3].

* وفى سفر صموئيل الأول:

" فقال داود للفلسطينى أنت تأتى إلىَّ بسيف وبرمح وبترس، وأنا آتى إليك باسم رب الجنود إله صفوف إسرائيل الذين عيرتهم.. فتعلم كل الأرض أنه يوجد إله لإسرائيل " [4].

٢ - أما من ناحية الطبيعة البشرية:

فلا يخفى على أحد أن طبيعة العالم الأرضى مبنية على التدافع، والتنازع والتغالب - كما صور القرآن الكريم بدقة - ومعروف عن تاريخ البشر أن الحرب سنة من سنن الاجتماع البشرى، أو أكبر مظهر وأثر لسنة تنازع البقاء،

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح العاشر، ٣٤ - ٣٦.
(٢) سفر حزقيال: إصحاح ٢١، ١ - ٥، ص ٣٠ - ٣١.
(٣) سفر القضاة: الإصحاح الأول، ٨ - ٩، ص ٣١.
(٤) سفر صموئيل الأول: الإصحاح ١٧، ٤٥ - ٤٧، ص ٣٤.

ولا يشذ عن هذه القاعدة كل الكائنات كالحيوانات والحشرات والنباتات. " فالنمل - مثلا - رغم أنه يعيش عيشة التعاون والاجتماع، إلا أنه يغزو ويبيد، ويسترق، ويستخدم رقيقه في خدمته، وترفيه معيشته، وغزو أعدائه " [1].

وإذا كان الأمر يتعلق بخليفة الله في الأرض، وبرسالة خاتمة وعالمية، وبرسول مصطفى من قبل الله عز وجل، ومأمور من قبل الحق تبارك وتعالى أن يبلغها للناس كافة؛ فماذا لو استعصت الأمور، ونفذت كل الوسائل الممكنة وغير الممكنة، واستحكم الشر والبغى والظلم والعدوان.

فهل من الحق والعدل أن يتقاعس الأخيار عن مدافعة ذلك؟!

ألم يروا مثيروا هذه الشبهة، كيف تصدى خصوم الدين النصرانى للمسيح، وما كان يدعو إلا للصلاح والسلام!حتى أنهم استصدروا أمراً بصلبه فنجاه الله منهم، وما زالوا بالذين اتبعوه يضطهدونهم ويقتلونهم، حتى مضت ثلاثة قرون، وهم مشردون في الأرض لا تجمعهم جامعة إلى أن حماهم من أعدائهم بالسيف على يد الامبراطور قسنطنطين الرومانى. ومن ذا الذى ينسى ما حدث بين البروتستانتية والكاثوليكية من الحروب الماحقة حتى استقر كل فريق منهم في الحيز الذى هو فيه؟!! [2].

تعقيب في صـورة تســاؤلات:

كيف يقوم دين - وهو الدين الخاتم - على غير الشرائع السماوية، والسنن الطبيعية في عالم مبنى على مبدأ التدافع والتنازع، واستعصى فيه السلام، وقد استخدم القوة الحيوانية لطمس معالـم الحـق، ودك صروح العدل والحق؟!!

وبم نفسر اعتماد الأمم على الحروب الماحقة في العصر الحاضر؛ وقد وصلت إلى درجة رفيعة من المدنية، وهى تخوض حروبا طاحنة ومدمرة برغم إقرار السلام؟!!

---

(١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار، ط٢، ج١٠، مرجع سابق، ص ٣٠٩.

(٢) محمد فريد وجدى: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ط١، مرجع سابق، ص١٦٥.

وإذا سوغت لهم أنفسهم أو مذاهبهم هذه الحروب. فهل هى مبنية على قواعد وضوابط أخلاقية رحيمة كالتى أقرها الإسلام وسار على نهجها رسول السلام ؟!!

وبعد هذا كله. فهل للعقل البشرى أن يُحِّرم على رسول الله ، الحرب أو القتال لبضع سنين، قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، وقد قصد من وراء ذلك إلى إحداث تطور عام وشامل في الناحيتين الدينية والخلقية؟!!

دحض الشبهة الثانية (وهى فرية انتشار الإسلام بحد السيف)

ونظرا لأن هذه الفرية الزائفة، كثيراً ما يرددها خصوم الإسلام قديما وحديثاً، فإننى سوف أخصها بمزيد من التفصيل، رغم أنها تحتاج إلى بحث مستقل.

ومن خلال سيرة رسول الله ، يمكن استخلاص بعض الحقائق التالية والتى تنفى نفيا قاطعا هذه الفرية الزائفة: -

١ - ثلاثة عشر عامًا من الصبر والصفح الجميل:

ظل النبى ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجاهد بالقرآن والحجة، لم يحمل سيفا أبدًا، ولم يشهر سلاحا في وجه المشركين، نزل عليه ، في هذه المدة الطويلة، نحو من ست وثمانين سورة من سور القرآن الكريم (أى ٧٥% من جملة القرآن الكريم) تدور حول قضايا محدودة أهمها التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، وتبعا لتعاليم الله عز وجل، للنبى ، بالصبر والصفح الجميل، نجد أن رسول الله ، تحمل الأذى وعنت قريش وكبرياءها، ولم ينقطع لحظة واحدة عن القيام بالمهمة التى كلفه بها الله سبحانه وتعالى، وهى التبليغ والجهر بالدعوة، وقد أجمعت كتب السيرة على أن الفترة المكية، لم تكن أبدًا فترة أمن من كل الجوانب، وخاصة في هذه البيئة العربية التى استحكم فيها الشرك وتأصلت فيها العقائد الباطلة، بدرجة تجعل إقناعهم بالتوحيد والإيمان باليوم الآخر، أمراً مستحيلا، وكانت المشكلة أمام النبى من أعقد المشكلات، وتحتاج إلى عون ومدد إلهى على الدوام، حتى يمكن إعدادهم لإدراك هذه المعانى الكبيرة، والمبادئ السامية التى يدعو إليها.

وكان رسول الله ، يدرك من أول يوم نزل عليه الوحى، ما سوف يواجهه من متاعب كبيرة، وأعباء في سبيل الدعوة، وأنه سيكون إيذاء، وتكذيب، وإخراج من الديار، وألم نفسى... لكن يعقب كل ذلك نصر وتأييد، ولن يكون هذا النصر قبل هذه الابتلاءات والشدائد والتمحيص.

أخرج البخارى في صحيحه، من حديث عائشة رضى الله عنها: عندما قال النبى للسيدة خديجة رضى الله عنها: " زملونى زملونى " فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة، وأخبرها الخبر " لقد خشيت على نفسى " فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق... فلما علم ورقة بن نوفل، قال: هذا الناموس الذى نزَّل الله على موسى عليه السلام، يا ليتنى فيها جذعا (شابا)، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله : " أوَ مخرجيَّ هم؟ " قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرا " [(١)]. ليس أمام رسول الله ، سوى الالتزام بأوامر الله عز وجل، وهو الصفح الجميل، والصبر، وتحمل العنت والأذى الذى لم يسبق له مثيل، بل إنه ، كان يرى المستضعفين من المسلمين يعذبون عذابا شديدا على أيدى الجلادين من قريش، فما يزيد عن قوله: " صبراً آل ياسر، موعدكم الجنة " [(٢)].

وأخرج البخارى في صحيحه، عن أبي عبد الله خباب بن الأرت رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدة، فقلت: ألا تدعو الله لنا؟ فقعد وهو محمر وجهه، فقال ": لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد، ما دون عظامه من لحم، أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنتين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله. ولكنكم تستعجلون " [(٣)].

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١/٩٩، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص٣٢، ٣٣.

(٢) ابن هشام: ج١، مرجع سابق، ص ٢٩٨.

(٣) البخارى: صحيح البخارى (مشكول)، ج٥، باب ما لقى النبى ◘ وأصحابه من المشركين بمكة، مرجع سابق، ص ٥٦، ٥٧.

وبعد هذه السلسلة الطويلة من الإيذاءات، والاستهزاء، والاضطهاد، والمقاطعة الرهيبة المشهورة، التى جعلت النبى وأصحابه وآل بيته في عزلة تامة عن المجتمع ثلاث سنوات، حتى اضطروا إلى أكل أوراق الشجر، وتعرضوا لكل أنواع الابتلاء والتمحيص...! بعد هذه الحقائق الثابتة..

ألم يَبْلُغ أولئك الذين يثيرون هذه الشبهة، أن رسول الله ، أمر المستضعفين من المسلمين بالهجرة إلى الحبشة مرتين، فراراً بدينهم رغم كل ما حدث؟! تلك الهجرة التى حملت صحابيا جليلا كعثمان بن عفان (رضي الله عنه)، أن يهاجر وفى صحبته زوجته رقية بنت رسول الله !

ألم يَبْلُغهم كذلك، أن رسول الله ، عندما ترك أحب البلاد إليه بعد أن ظلت دعوته حبيسة بمكة ثلاث عشرة عاما، وقد استقر في المدينة، بعدما هدى الله عز وجل أهلها للإسلام، تتبعه المشركون من قريش، وهم مصرون إصرارا على استئصال هذا الدين، بشنهم الحروب الطاحنة عليه ؟!!

فكيف يمكن أن تسير الدعوة بعد كل ذلك بغير قوة تحميها، والأعداء يحيطون بها من كل جانب، ويتربصون بها الدوائر في كل وقت وحين؟!!

وماذا كان يصنع النبى - وهو صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية - بعدما هاجر إلى المدينة فرارا بدينه هو ومن معه بعدما ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق، ومازالوا يقاتلونهم؟!!

وماذا عن الذين يستذلون المستضعفين من الرجال والنساء والولدان دون هوادة ولا رحمة؟!!

وماذا عن الذين يخونون العهود والمواثيق من المشركين واليهود، وقد سالمهم النبى ؟!

ألم يقارنوا بين موقف قريش هذا، وبين موقف صاحب الخلق العظيم يوم فتح مكة، وكان في استطاعته أن يتخلص من هؤلاء الجبابرة؟!

٢ - رحمة الحنَّان ولطف المنَّان على حبيب الرحمن:

وسط هذا الجو الكثيف الظلمات، وهذه القلوب التى هى أشد قسوة من الحجارة، كان الله سبحانه وتعالى يلاطف النبى ، ويزيده يقينا فوق يقينه، فتارة يعظم قدره، ويقسم بحياته وبعمره{لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾} [الحجر: آية ٧٢].

والله سبحانه وتعالى يقسم بما شاء على ما شاء إظهارا لدلائل قدرته وبدائع صنعه، فقد أقسم سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم، وبعظيم مخلوقاته. وتارة يقول له لا تحزن ولا تحمل نفسك ما لا تطيق عندما يجده مشغولا ومهموما لعدم إيمان قومه: لعلك بخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين} [الشعراء: آية ٣].

يأتى بعدها مباشرة قوله تعالى:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ [الإسراء: آية ١].

وقد روت كتب السيرة أن الإسراء والمعراج حدث " قبل الهجرة إلى المدينة بعام أو يزيد "[1] وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يمهد ويعد النبى ، لأخطر وأهم مرحلة، بعد هذا الصبر والصفح الجميل والطويل، حيث سيواجه ويقف أمام الجميع بهذه القلة المؤمنة، ليبلغ الرسالة الخاتمة، ويؤدى الأمانة التى عجزت السموات والأرض والجبال عن حملها، فكانت رؤية الآيات الكبرى هامة وضرورية في هذه الفترة الحرجة، وربما هذا الحدث يشبه - مع الفارق الكبير - ما حدث لنبى الله موسى عليه السلام، عندما أراه الله عز وجل من الآيات الكبرى قبل مواجهة فرعون.

وتارة أخرى يؤكد له الحق تبارك وتعالى، أنهم لا يتهمونه بالكذب، ولكنهم يكذبون ويجحدون ما نزل من الحق. فقد قال أبو جهل للنبى إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به [2].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، مج٢، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

٣ - إسلام الأوس والخزرج ينفى فرية السيف:

لقد أحسن " العقاد " عندما أورد بعض الحقائق التى تظهر الاختلاف بين الدين الإسلامى، والأديان الأخرى في مسألة السيف، ليثبت أن للإسلام شأنا في اجتناب القوة كشأن كل دين، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحا للانتصار، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم أو تكف عن عمل أقدم عليه النبى ، لو كانت دعوتها كدعوته، وكانت أسبابه كأسبابه. ونوجز أهم هذه الحقائق ببعض تصرف:

أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين سيف أو قتال، إنما يصدق - لو صدق - في بداءة عهد الإسلام، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين من الأوس والخزرج، ولولاهم لما كان له جند ولا حُمل في سبيله سلاح..

أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط، إلا حيث أوجبته جميع الشرائع، وسوغته جميع الحقوق، وأن الذين خاطبهم الإسلام بالسيف مضطراً، قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك.

وأن الواقع يؤكد أن الإسلام في بداءة عهده كان هو المعتدى عليه.. وحروب النبى كانت كلها حروب دفاع، ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوى في ذلك حروبه مع قريش، ومع اليهود، أو مع الروم.

وقد تساءل بعد أن أورد هذه الحقائق قائلا:

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟!

وحتى الدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها. بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟ وهذا أيضا ما قضى به القرآن الكريم، حيث جاء فيه: وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل، وتكون نهاية الظلم والاعتداء، نهاية الاعتماد على السلاح.. ثم يأتى الصلح والتوفيق.. أو يأتى التفاهم بالرضى والاختيار [1].

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ٢٩ - ٣١ (بتصرف).

- إسلام الأوس والخزرج آية إلهية من وجهة نظر البعض:

ولئن أحسن " العقاد " صنعا، عندما أدحض مطعن القائلين بأن الإسلام دين سيف، وأن ذلك يصدق - لو صدق - في بداءة عهد الإسلام، يوم دان بهذا الدين الأوس والخزرج.

فإن بعض الذين تناولوا السيرة النبوية تحت ضوء العلم والفلسفة، ذهبوا لأبعد من ذلك، حيث قال أحدهم في صراحة شديدة، عند تعليل إسلام الأوس والخزرج: " اللهم إنى عجزت عن تعليل هذا الأمر الجلل بالعلل الطبيعية، ولا أراه إلا آية إلهيـة، وكم في الأرض والسموات من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية " [١].

وهم في ذلك لم يقبلوا تعليل إسلام الأنصار الفجائى، بالتعليل الذى تناقلته جميع كتب السيرة، وهو أن سبب استجابتهم السريعة إلى الإسلام أن اليهود كانوا إذا حدث بينهم وبين الأوس والخزرج شئ قالوا: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه، نقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما كلم رسول الله ، أولئك النفر، ودعاهم إلى الله. قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه " [٢].

وقد تساءل أصحاب هذا الرأى قائلين:

أين كان أهل يثرب طوال هذه المدة (ثلاث عشرة سنة)، وكيف لم يخشوا أن يسبقهم إليه اليهود الذين توعدوهم به، ولماذا أحجم هؤلاء اليهود عن المسارعة إلى قبول دعوته، وقد بلغتهم بمكة، وبالمدينة أيضا قبل إسلام الأوس والخزرج بسنين طويلة؟.

ألا يدل هذا الانصراف الطويل من الجانبين على أنهم كانوا لا يفكرون في الاستنصار بالنبى الجديد على مناهضيهم؟.

وهل كانت اليهود لتصرح بذلك لأعدائهم غير خاشعين أن يسبقوهم إلى الدخول في دينه، ولم يعهد في تاريخ بنى إسرائيل أنهم كانوا من إفشاء أسرارهم بحيث يطلعون أعداءهم على صميم سرائرهم؟!

---

(١) محمد فريد وجدى: السـيرة المحمدية تحت ضـوء العلم والفلسـفة، مرجع سـابق، ص ١٤٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ١٦٩.

وإذا كان هذا مما لا يمكن قبوله، فهل يمكن قبول أن الأوس والخزرج كانوا من السذاجة بحيث يصدقون كلام اليهود، ويبادرون في دين جديد، وخاصة إذا كان الداعى إليه مضطهدا، وأصحابه مستضعفين لا يغنون عن أنفسهم شيئا؟! [1].

- تعقيـــــب:

وهذا الفريق (العقاد ووجدى وغيرهما) ربما يجانبه الصواب إلى حد كبير، لأسباب منطقية، أجمعت عليها أيضا كتب السيرة وهى:

السبب الأول:

أن رسول الله ، حينما تقابل مع أصحاب العقبة (الأولى والثانية)، وقال لهم " تبايعونى على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منـه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم..[2] لم يزد النبى عن قوله لهم " ولكم الجنة ".فلم يعدهم النبى ، بسيطرة دنيوية أو سلطان أرضى.. أو غير ذلك.

السبب الثانى:

أن الإسلام الفجائى للأوس والخزرج، يحتاج إلى وقفة تأمل، لأن كتب السيرة تؤكد أيضا أن رسول الله ، مكث بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، عكاظ ومجنة، وفى المواسم، وكان لا يسمح بقادم يقدم مكة من العرب، إلا تصدى له، ودعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه الإسلام.

- فعن جابر رضي الله عنه - كما قال الإمام أحمد - مكث رسول الله بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، عكاظ ومجنة، وفى المواسم يقول: " من يؤوينى؟ من ينصرنى؟ حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة " فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه وذوو رحمه، فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك، ويمضى بين رحالهم، وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدقناه " [3].

---

(١) محمد فريد وجدى: السـيرة المحمدية تحت ضـوء العلم والفلسـفة، مرجع سـابق، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.

كما روى أن رسول الله ، كان كلما اجتمع الناس بالموسم، أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه، وما جاء به من الهدى والرحمة، ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف، إلا تصدى له ودعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده " [1].

السبب الثالث:

وهو ما يثير الدهشة والعجب، ويؤكد ذلك، هو دخول سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير في الإسلام دون تردد، وكان ذلك في السنة الثانية عشرة من البعثة (أى قبل الهجرة مباشرة)، وكلاهما كان مشركا، فقد أسرع أسيد ابن حضير، وفى يده حربة يريد مصعب بن عمير، وأسعد بن زرارة، ومن بعده مباشرة جاء سعد بن معاذ، ثائرا غاضبا أشد الغضب، وحربته في يده.. " فلما عرض مصعب بن عمير ﷺ، عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، لم يتردد لحظة واحدة في الدخول فيه، ولم يزد سعد بن معاذ ﷺ، عما قاله أسيد بن الحضير منذ لحظات " ما أحسن هذا وأجمله، كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قال: تغتسل، فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين ". بل إن سعد بن معاذ ﷺ، وقف في نفس اليوم على قومه وقال لهم: يا بنى عبد الأشهل كيف تعلمون أمرى فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة (مشورة)، قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، قال " فو الله ما أمسى في دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة [2].

السبب الرابع:

أن كتب السيرة قد ذكرت، وكذلك البخارى في صحيحه، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله، قدم رسول الله إلى المدينة وقد افترق ملاؤهم (أشرافهم)، وقتل سراتهم [3].

وعبارة (.. قدَّمه الله لرسوله) لها دلالات كثيرة، فيوم بعاث - وبعاث موضع بالمدينة - كانت فيه وقعة عظيمة قتل فيها خلق من أشراف الأوس والخزرج وكبرائهم،ولم يبق من شيوخهم إلا القليل.

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ١٧٣ (بتصرف).
(٣) المرجع السابق، ص ١٦٨.

ومما يؤكد أن هؤلاء الشيوخ كانوا من الصعوبة بمكان أن يقبلوا دعوة النبى ، هو هذا الموقف. " لما قدم أبو الحَيْسر أنس بن رافع، مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ، فأتاهم فجلس إليهم فقال: " هل لكم في خير مما جئتم له؟ " قال، قالوا: وما ذاك؟ قال: " أنا رسول الله إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علىَّ الكتاب ". ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، قال، فقال: إياس بن معاذ - وكان غلاما حدثا - أى قوم هذا والله خير مما جئتم له. فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج [(١)].

٤ - نفى فرية السيف نفيا قاطعا من غير المسلمين:

١/٤ توماس كارليل وسيف العقل:

لقد نفى (توماس كارليل) نفيا قاطعا شبهة السيف، في كتابه " الأبطال وعبادة البطولة في التاريخ ١٨٤٠ " وقال: " هذه الأكاذيب التى جُمعت بحماس شديد حول هذا الرجل - محمد - إن هى إلا عار علينا وعلى أنفسنا فقط ".. بل نفى عنه نفيا قاطعا تهمة الكذب والتضليل والاحتيال قائلا: " إن رجلا كاذبا لن يتمكن من بناء منزل من الطوب إذا لم يكن على علم بالطوب والمونة، وطريقة بناء البيوت، وإلا فإنه لن يبنى بيتا، لابد أن ينهار، ولكن النبى محمد أنشأ دينا، ويبقى هذا الدين حتى الآن، وأن يتبعه ملايين البشر! فأى سيف؟ ثم يجيب على نفسه قائلا: " إنه سيف العقل " [(٢)].

- ويعلق " أحمد ديدات " - رحمه الله - على كارليل، بقوله:

- وماذا عن الوقت الحاضر، ممن يرددون مقولة انتشار الإسلام بحد السيف؟! ثم يؤكد عن طريق الإحصاءات أن الإسلام هو أسرع الديانات انتشارا في العالم، ففى مدى خمسين عاما فقط، بين عامى (١٩٣٤ - ١٩٨٤) زادت نسبة انتشار الإسلام عن باقى الأديان الأخرى،

---

(١) المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٢) أحمد ديدات: محمد رسول الله أعظم العظماء، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٥ (بتصرف).

فقد زادت نسبته ٢٣٥%، بينما لم تزد نسبة جميع الطوائف المسيحية في نفس المدة إلا بمقدار ١٣٨%، كما أن الإسلام هو الأسرع انتشارا في انجلترا وأمريكا. ثم يقول أيضا " إنه سيف العقل كما يقول توماس كار ليل " [١].

٢/٤ شاسترى وسيف الرحمة:

يقول (بانديت جيانا ندرا ديف شاروما شاسترى) في الهند ١٩٢٨: " هم (ناقدو محمد) يرون النار بدلا من النور،القبح بدلا من الجمال، هم يحرفون كل صفة جميلة، ويقدمونها على أنها رذيلة كبيرة، وهذا يوضح فسادهم وفجورهم.. أصاب الناقدون العمى، فهم لم يروا أن السيف الوحيد الذى شهره محمد كان سيف الرحمة والشفقة والصداقة، إن هذا السيف أحد من السيوف المصنوعة من الصلب " [٢].

٣/٤ أما أحد الصحفيين السيخ:

فيقول في جريدة (نوان هندوستان) ١٩٤٧: " لقد فضل محمد الهجرة على حرب قبيلته، ولكن حينما تعدى الظلم حد الاحتمال، حمل السيف دفاعا عن النفس، والذين يعتقدون أن العقيدة تنتشر بالسيف أغبياء، وهم فخورون بهذا الادعاء، لأنهم بعيدون جدا جدا عن الحقيقة [٣].

٤/٤ دى لاسى أوليرى وأسطورة السيف الخرافية:

يفند (دى لاسى أوليرى) في كتابه " الإسلام على مفترق الطرق " لندن ١٩٢٣، أكاذيب أعداء الإسلام، بأن الدين انتشر بحد السيف فيقول: " إن التاريخ يؤكد أن الأسطورة القائلة بأن المسلمين المتعصبين اكتسحوا العالم، وأجبروا الشعوب المهزومة باعتناق الإسلام تحت حد السيف، إنها أكثر الخرافات التى رددها المؤرخون سخفا وتعصباً وبطلانا ".

ثم يعلل ذلك بأمثلة دامغة قائلا: " لقد حكم المسلمون الأندلس لمدة (٧٣٦ سنة).. وبعد ثمانية قرون في الأندلس فإن المسلمين قد أبيدوا تماما من أسبانيا، ولم يبق مسلم واحد ليرفع الأذان. ولو كان المسلمون قد استعملوا القوة في الأندلس - حربية كانت أم اقتصادية - لما بقى المسيحيون هناك ليقوموا بحرب المسلمين وطردهم من هناك.. فلا يمكن اتهام المسلمين باستعمال السيف في الأندلس لتحويل الأسبان إلى مسلمين.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣١.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٥.
(٣) المرجع السابق، ص ٣٥.

ومازال الإسلام ينتشر إلى اليوم في جميع أنحاء العالم بالرغم من أن المسلمين لا يمتلكون السيف! كما حكم المسلمون الهند مدة ألف سنة، ومع ذلك عندما حصلت شبه القارة الهندية على استقلالها، حصل الهندوس على ثلاثة أرباع البلاد، وحصل المسلمون على الربع الباقى. والسبب في ذلك هو أن المسلمين لم يجبروا الهنود على اعتناق الإسلام، لأنهم أطاعوا القرآن حرفيا، إذ يقول:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

ويعلق " أحمد ديدات " - رحمه الله - قائلا: " وماذا يقول خصوم الإسلام عن بعض البلاد الإسلامية التى لم تطأها قدم جندى مسلم واحد!!

أ- أندونيسيا، حيث يوجد أكثر من مائة مليون مسلم، ولم يطأ أراضى جزرها الألفين، أى جيش مسلم غازى.

ب- وماليزيا، أغلبية سكان هذا البلد مسلمون، بالرغم من عدم ذهاب جندى مسلم واحد إليها.

ج- أفريقيا، معظم سكان بلاد شرق أفريقيا حتى موزمبيق من المسلمين، وكذلك عدد غفير من سكان غرب أفريقيا، ولم يسجل التاريخ أى جموع غازية من المسلمين لهذه البلاد.

٥/٤ نبيل لوقا بباوى وفرية السيف:

وهو مفكر قبطى معاصر معروف، تحمل عناء الرجوع إلى شتى المراجع والمصادر، ليدحض فرية السيف عن رسول الله ، وقد ألف كتابا يقع في خمسة أبواب، بعنوان " انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء " سنة ٢٠٠٢. ويقول في مقدمة كتابه - ليبعد شبهة عدم الحيادية عن نفسه - قائلا: " ورغم أننى قبطى أرثوزكسى أعتز بمسيحيتى، إلا أننى وجدت من واجبى الوطنى، أن أبين الحقيقة فيما يدعيه بعض المستشرقين الغربيين من أن الإسلام انتشر بحد السيف " ويعقب في جميع فصول الكتاب، بعد أن يستعرض كل موقف من المواقف من خلال السيرة، وبعد عرضه الدقيق لغزوات رسول الله قائلا: " أين هو حد السيف الذى انتشر به الإسلام؟! وأين هو الإكراه والإجبار على الدخول في الإسلام؟! ثم يعلق متسائلا:

ألم يعلم هؤلاء أن رسول الله ، بلغ من سماحته أنه رد صحائف التوراة التى غنمها المسلمون من اليهود في غزوة خيبر، حتى يباشروا عقائدهم الدينية؟![1].

ويتساءل (نبيل لوقا بباوى) باستنكار شديد قائلا:

" أين هو انتشار الإسلام بحد السيف في عام الوفود؟ وقد جاءت الوفود طائعة من كل أنحاء الجزيرة العربية، غير عابئين من عناء السفر، ووعورة الطريق، حتى يعلنوا إسلامهم بإرادتهم! وهذا في حد ذاته من أقوى الأدلة التى تنفى فرية السيف [2].

وإضافة إلى ما سبق، فإن رسول الله ، دخل مكة في عشرة آلاف من المسلمين - كما أشرت من قبل - وبعد عامين اثنين في حجة الوداع بلغ عدد المسلمين إلى ما يقرب من " مائة ألف أو يزيد، وعدد مثله ينتظرون بمكة " [3]. وكأنما هناك يد خفية قوية، تدفع هذه الجموع الكبيرة إلى الدخول في دين الإسلام.

٥ - الإحصاءات الحديثة خير شاهد على ذاتية انتشار الإسلام ودحض فرية السيف:

ويتضح بما لا يدع مجالا للشك، من الجدول التالى، دحض مزاعم الذين يقولون أن الإسلام انتشر بالسيف، أو يأتى عن طريق الإكراه، فهؤلاء الناس جاءوا من بلاد مختلفة طواعية ليعلنوا دخولهم في الإسلام في مشيخة الأزهر بالقاهرة [4].

هؤلاء قد جاءوا بطريقة رسمية إلى الأزهر ليعلنوا دخولهم في الإسلام، ولم يدخل في هذا العدد الجموع الكبيرة الأخرى ممن يدخلون في الإسلام دون الرجوع إلى مشيخة الأزهر.

---

(١) نبيل لوقا بباوى: انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء (١)، مجلة الأزهر، القاهرة، ج١٠، السنة (٧٥): مجمع البحوث الإسلامية، شوال ١٤٢٣هـ - ديسمبر ٢٠٠٢، ص ١٥٦١ - ١٥٦٨ (بتصرف).

(٢) المرجع السابق، (٢)، ج(١١)، السنة(٧٥)، ذو القعدة ١٤٢٣هـ - يناير ٢٠٠٣، ص ١٧٥٤.

(٣) أمين دويدار: صور من حياة الرسول، ج٤، مرجع سابق، ص ٢١٧.

(٤) محمد سيد طنطاوى: حوار هادئ مع قداسة بابا الفاتيكان، هدية مجلة الأزهر لشهر ذى القعدة، ١٤٢٧ هـ، مرجع سابق، ص ٣٢.

والذى يؤكد ذلك - على سبيل المثال وليس الحصر - ما ذكرته وكالات الأنباء الفرنسية، أن نسبة السكان المسلمين في (رواندا)، قد ارتفعت من (٢.١%) قبل عشر سنوات، إلى (١٦%) من إجمالى عدد السكان البالغ عددهم نحو(٢.٨) مليون نسمة [١].

هذا هو الواقع الذى لا ينكره أحد، والحقيقة التى يجب أن يدركها الجميع، فهذه الرسالة الخاتمة والعالمية، بما فيها من أصول ومبادئ، فيها من قوة الاستمرار، وذاتية الانتشار - حتى لو مر أهلها أحيانا بفترات ضعف - ما يلفت النظر ويحير عقول المعترضين والمرجفين.

الشبهة الثالثة:

حول الحديث الصحيح لرسول الله : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله، فقد عصم منى نفسه، وماله إلا بحقه، وحسابه على الله " وقول الحق تبارك وتعالى: " لا إكراه في الدين ".

ورغم أن هذه الشبهة الزائفة ربما يكون لها علاقة بالشبهتين السابقتين، إلا أن البعض قد يفهم من ظاهر هذا الحديث الصحيح الذى أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما.. [٢] أنه يتعارض مع قول الحق تبارك وتعالى:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

لقد تعجب الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - أشد العجب، من تفسير البعض لكلمة " الناس " في الحديث الشريف، وأدحض هذه الشبهة في سهولة ويسر، كما عاب على بعض الذين يشتغلون بالحديث، بأنهم ليسوا فقهاء في علوم القرآن الكريم قائلا: " لقد فهم البعض أن كلمة " الناس " في الحديث تشمل العالم!! ومعنى هذا أن الإسلام ماسك العصا، طائح في القارات كلها، يقول للناس: الإسلام أو السيف!! هذا تفكير قطّاع الطرق وليس تفكير دعاة، وهذا جنون في فهم السنة المطهرة. ففى علم النحو " أل " تكون للعهد، وتكون للجنس (أى للناس جميعا)، ومعنى للعهد، أى ناساً معهودين مخصوصين.

---

(١) منى القاضى: نافذة على المعلومات، منبر الإسلام، السنة (٦٣)، العدد (٤)، القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ربيع الآخر ١٤٢٥ هـ - يونية ٢٠٠٤، ص ١٢٤.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج١/١٤، كتاب الإيمان، مرجع سابق، ص ٦.

فإذا قال البعض: وما المانع أن تكون " أل " هنا للجنس؟ أقول: يوم تجعلها للجنس، أى للناس جميعا، فإنك تصطدم بالقرآن الكريم. فإن قيل: وكيف يكون الاصطدام؟ أقول: أن القرآن الكريم تحدث عن أهل الكتاب المعتدين، الذين تحدوا وشاغبوا، فقال: القتال معهم إلى أن يعطوا الجزية، فلا يكرهون على أن يقولوا لا إله إلاله الله قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩).

فهذه الآية في مقاتلة قوم من المعتدين المجرمين الغادرين، حتى يقولوا لا إله إلا الله؟ لا، حتى يدفعوا نفقات الحرب التى يشتبك المسلمون فيها دفاعا عن دينهم وعن أرضهم، وعمن يعيش في ظلهم.

وبهذا يكون أهل الكتاب مستثنون يقينا.

وليس هذا فقط، بل وغير أهل الكتاب أيضا. فإذا قيل كيف؟ أقول: قال رسول الله - في المجوس - " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " كما روى الشافعى ومالك.

فإذا كان أهل الكتاب مستثنون أيضا. فماذا يقصد " بالناس " في الحديث إذن؟ أقول هذا الحديث قيل في العرب الوثنيين. فالمقصود بكلمة " الناس " في هذا الحديث الشريف، وكذلك آية براءة، إنما هم العرب الوثنيون [١]. وقد أضاف صاحب كتاب الوحى المحمدى - رحمه الله - إلى ما سبق هذا التعليل المنطقى المقنع حين قال: " فإن قيل، ولماذا لم يقر الإسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس؟ قلت: إن الشرك الذى كان عليه العرب لم يكن دينا مبنيا على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الأديان، حتى التى خالطها الشرك، فإنهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الأعمال عند الله تعالى على قاعدة " إن خيراً فخير، وإن شراً فشر "، ولا كانوا يدينون لله تعالى بعمل الصالحات، وتحريم المنكرات، فأصول الدين العامة قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)

ألم يعلم أولئك الذين يثيرون هذه الشبهة، أن العرب الوثنيين هم الذين كانوا يبدأون بالقتال على الدوام؟! وأن أبو جهل - وهم أحدهم -

---

(١) قطب عبد الحميد قطب: محاضرات الشيخ محمد الغزالى في إصلاح الفرد والمجتمع، القاهرة: دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٩، ص ٢٣٥، ٢٣٧.

قال وأصر بعد نجاة العير، والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها..؟!![1].

كما أنه لا يسع النبى ، وهو حامل لواء الرسالة الخاتمة، ومأمور بتبليغ رسالته، مهما بلغت ميوله السلمية مداها - كما أشرت من قبل - أن يستمر في منع المسلمين من الدفاع عن أنفسهم، وفتنتهم عن دينهم الذى أنزل للإنسانية كافة، وقد أخرجوا من ديارهم بغير حق، في عالم يضيع الحق فيه، إن لم تكن وراءه قوة تؤيده!

ولذلك فإن كلمة " أُذن " التى ذكرت في (سورة الحج) هى كلمة دقيقة، فهى وإن كانت تدل دلالة قاطعة على منع القتال قبل نزولها، إلا أنها تدل أيضا على ورود القتال في وقت محدد لا فكاك ولا مهرب منه.

وإذا قال المعترضون: " وماذا يوجد في رسالة الإسلام من حجج وبراهين، حين تجمع كل الأمم على إبطال الحروب، ونشر السلام، وهذا إسلامكم يدعو للقتال؟! فالرد على هؤلاء بآية واحدة غاية في الإعجاز، وهى قوله تعالى: (وإن جنحوا للسلم فأجنح لها وتوكل على الله أنه هو السميع العليم). وهذه الآية أدل دليل على أن الإسلام لم يشرع القتال لذاته، ولكن لأنه من عوامل الاجتماع التى لابد منها مادام الإنسان في عقليته ونفسيته المأثورتين عنه. غير أنه لم ينف أن يحدث تطور عالمى يتفق فيه العالم على إبطال القتال أو الحرب، فصرح القرآن بهذا الحكم قبل حدوثه ليكون حجة لأهل الإسلام من ناحية، وليدل على أنه لا يريد الحرب لذاتها من ناحية أخرى، ولو كان يريدها لذاتها لما نوَّه بهذا الحكم [2].

تعقيب على الشبهات الثلاث السابقة:

نتيجة تثير الدهشة:

على الرغم من أن هناك خلاف طفيف في كتب السيرة حول عدد غزوات الرسول ، وكذلك عدد السرايا - سواء من ناحية العدد أو من ناحية عدد الشهداء والقتلى - إلا أنه من خلال تحليل الغزوات والسرايا التى حدثت في عهد رسول الله ،

---

(١) ابن هشام: ج٢، مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٢) محمد فريد وجدى: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، مرجع سابق، ص ١٦٦.

نجد أنها بلغت ما يقرب من سبع وعشرين غزوة، وستين سرية تقريبا (الملحق الخاص بالغزوات والسرايا). وباستقراء الغزوات التى حدث فيها قتال، بصفة خاصة، نجد أن الجانب الأخلاقى لرسول الله ، يتجلى بصورة تلفت النظر، وخاصة إذا ما علمنا أن عدد شهداء المسلمين، وعدد قتلى المشركين يقل عن حادث سفينة واحدة غرقت في عرض البحر، أو حادث طائرة تحطمت! أو ما تحدثه القنابل العنقودية - مثلا - في دقائق معدودة تبيد الحرث والنسل!. وقد حصر البعض هذا العدد؛ بعد الرجوع إلى بعض المصادر بنحو (٧٦٦) من الجانبين[١].

في حين حصرهم البعض الآخر بنحو(٣٨٦) من الجانبين أيضا [٢].

ومن خلال مراجعة المصادر الأولية في السيرة النبوية، يوضح الجدول التالى عدد شهداء المسلمين، وعدد قتلى المشركين في الغزوات التى حدث فيها قتال:

ولو قورن هذا العدد الذى لا يذكر (٤٤٥) من الجانبين، بما أسفرت عنه الحروب الدينية بين مذهبين (الكاثوليك والبروتستانت) في وسط أوربا - على سبيل المثال - نجد أنها أهلكت ٤٠% من تعداد سكان هذه البلاد، أى عشرة ملايين نسمة حسب إحصاء فولتير! [٣].

من خلال العرض السابق الموجز، يتضح بما لا يدع مجالا للشك، أن هذا الحديث الشريف " أمرت أن أقاتل الناس... " لا يتعارض أبدا مع قول الحق تبارك وتعالى.

أما بالنسبة لعدم الإكراه في الدين، فقد دللت على ذلك بأدلة دامغة في الشبهة الثانية، كما أشرت في الفصل الثانى أيضا إلى أن رسول الله - من خلال مكاتبته للملوك - أن دعوته قائمة على العرض وليس الفرض أو الإجبار. فما كانت العقائد تغرس بالإكراه أبدا لا في القديم ولا في الحديث، وهى سنة الأنبياء جميعا كما أخبر القرآن الكريم عن جميع الأنبياء السابقين. فعندما عرض (نوح عليه السلام) دعوته على قومه فرفضوها. فبماذا أجابهم؟!!

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ [هود: ٢٨].

---

(١) على جمعة: شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام، مرجع سابق، ص ٨٥.
يونيو ٢٠٠٣م، ص ١١٨.
(٣) المرجع السابق، ص ١١٨.

وهكذا الحال مع رسول الله - سواء في العهد المكى أو المدنى - والآيات في ذلك كثيرة وأشهر من أن تذكر.

والواقع هو خير دليل، وأثبت حجة، فما عرف الناس جميعاً مكانا يأمنون فيه على دينهم غير أرض الإسلام - وقد أشرت إلى ذلك من خلال سيرة رسول الله - والدليل الذى لا يقبل الشك، أن بقايا الأديان الأخرى موجودة الآن في الأراضى التى فتحها الإسلام... فيوجد نصارى في مصر، وفى بلاد الشام، كما يوجد يهود أيضا... بينما لا نجد مسلمين في أسبانيا رغم المدة الطويلة التى عاشوا فيها - كما أشرت إلى ذلك في الشبهة الثانية - علماً بأن عدد المسلمين كان بالملايين!

ومن الحقائق الثابتة التى لا ينكرها التاريخ، أن غالبية أهل مصر لم يدخلوا الإسلام إلا بعد الفتح الإسلامى بأكثر من قرنين من الزمان، أما قبل ذلك فكانت النسبة ضئيلة.

فأين إذًا هذا الإكراه أو الإجبار؟!!

وقد أحسن الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - حين قال أن " سر قانون الله عز وجل الوثيق في قوله تعالى:

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)

هو أن الإسلام ما قام يوما، ولن يقوم أبدا على إكراه، لأنه واثق من شئ واحد، من نفاسة تعاليمه، وجودة شرائعه، فإذا لم تكن جودة الشئ هى التى تغرى بالإقبال عليه وقبوله، فلا كان قبول، ولا كان إقبال..! [١].

الشبهة الرابعة: الحكم على بنى قريظة

ما أعجب هؤلاء الذين يثيرون هذه الشبهة، إذ يذكرون العقوبة وينسون الجرم العظيم الذى استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة!

وقد أشرت في الفصل الثالث من هذا البحث، إلى القواعد والضوابط الأخلاقية للقتال في سيرة رسول الله ، ومنها الوفاء الكامل بالعهود والمواثيق وتحريم الخيانة فيها، وكيف أنها محكومة بضوابط أخلاقية إلهية، ودللت على ذلك ببعض الأمثلة التى يحتذى بها من سيرة رسول الله .

---

(١) محمد الغزالى: هذا ديننا، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٢، ص ٥٩، ٦٠.

ولكن موقف بنى قريظة قد تجاوز الغدر والخيانة ونقض العهود والمواثيق، إلى درجة يستحيل فيها أخذ العهود معهم من جديد.

لقد بلغ بهم الكذب - وهم أهل كتاب - مبلغا لا يوصف، حتى إنهم قالوا للمشركين من قريش، أن ما أنتم عليه من الشرك والوثنية، خير وأهدى وأفضل من التوحيد والهدى الذى جاء به رسول الله للناس كافة! فقد ذكر ابن هشام وغيره، من حديث الخندق " أن نفرا من اليهود خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه، حتى نستأصله، فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أهدى منه وممن اتبعه، وأنتم أولى بالحق منه. فهم الذين أنزل الله فيهم:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١)

فلما قالوا ذلك لقريش، سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه، من حرب رسول الله [١].

ولا يخفى على أحد أن عدد الأحزاب كان يزيد عن ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، وحدثت تلك المعاهدة السرية الدنيئة مع قريش، وقد حدثت الخيانة العظمى في أصعب وأشد اللحظات القتالية الحرجة - كما صور القرآن الكريم بدقة - حين زاغت الأبصار.. وبلغت القلوب الحناجر، وظن الناس بالله الظنون.

وينبغى أن يسأل أولئك الذين يثيرون هذه الشبهة أنفسهم:

ماذا كان مصير النبى والمسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟!

لاشك أنه لولا جند الله عز وجل وإرسال الريح، وحفر الخندق، وخدعة نعيم بن مسعود - كما أشرت في الفصل الثالث - لكان الاستئصال شبه التام للمسلمين!

- هل نزلوا على حكم النبى ؟!

من الثابت أيضا أنهم لم يتركوا الحكم لرسول الله ، ولكنهم هم أنفسهم الذين اختاروا (سعد بن معاذ) رضى الله عنه ليحكم في قضيتهم، ولو أنهم تركوا الأمر لرسول الله ، لما حدث لهم أكثر مما حدث لبنى قينقاع وبنى النضير، أو لأبعدوا عن المدينة على أسوأ الاحتمالات.

---

(١) ابن هشام: ج٣، مرجع سابق، ص ١٤٥.

- أخرج البخارى في صحيحه، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: لما نزلت بنو قريظة على حكم سعد، هو ابن معاذ، بعث رسول الله وكان قريبا منه، فجاء على حمار، فلما دنا قال رسول الله : " قوموا إلى سيدكم " فجاء فجلس إلى رسول الله ، فقال له: " إن هؤلاء نزلوا على حكمك " قال: فإنى أحكم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى الذرية، قال: " لقد حكمت فيهم بحكم الملك " [1].

- حُكم سعد بن معاذ كان رحيما عن نص التوراة الذى حكم به:

إذا كان سعد بن معاذ رضى الله عنه، قد دانهم بنص التوراة الموجود بين أيديهم - وهم الذين ارتضوه حكما - إلا أن نص التوراة يوصى بهلاك وإبادة كل نسمة، ولكن سعد بن معاذ، حكم " بأن تقتل المقاتلة فقط، وأن تسبى الذرية " وهذا هو نص التوراة الذى بين أيديهم: -

" حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك. وإن لم تسالمك، بل عملت معك حربا، فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمها تحريما (أى تبيدها وتهلكها)..! [2].

الشبهة الخامسة : (حول قتل كعب بن الأشرف)

إن القوانين الوضعية الحديثة تعاقب بالموت على جريمة لا تساوى شيئا بالنسبة للجرائم الكثيرة المقصودة التى ارتكبها (كعب بن الأشرف)، كما أن الذين يثيرون هذه الشبهة، يوقعون أشد العقوبات كالقتل رميا بالرصاص.. على تهمة التجسس..!

ليت هذا الرجل اكتفى بنقض العهود والمواثيق جهراً، وليته اكتفى بذهابه إلى مكة والإصرار على قتال المسلمين بتأليب قريش على المسلمين. بل إنه عقد العزم، وبيَّت النية، ودبر مكيدة لقتل رسول الله ، صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية.

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج٢/١١٥٥، كتاب الجهاد، مرجع سابق، ص ٢١٥

(٢) سفر التثنية: إصحاح (٢٠): ١٠ - ١٦.

ومعنى ذلك: أنه كان يريد قتل أمة بكاملها، والقضاء على الدين الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى للناس كافة حتى قيام الساعة.

كما وصل الأمر به إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، عندما شبب بنساء المسلمين (قال فيهن غزلا مكشوفا)، مما لا يقبله ولا يرضاه أى رجل عربي غيور في عرضه، " فلم يكن له وازع من نفسه، ولا حتى من قومه، ولم يكن مأمونًا على المسلمين وهو لائذ بحصنه - فهو أقل الناس حقا في أمان " [1].

فقد ذكرت كتب السيرة، أن كعب بن الأشرف " لما بلغه الخبر عن مقتل أهل بدر، حين قدم زيد بن حارثة، وعبد الله بن رواحه، قال: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها. فلما تيقن الخبر، خرج إلى مكة، فنزل على المطلب بن أبي وداعة بن صبيرة السهمى، وعنده عاتكة بنت أبي العيص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، فأنزلته وأكرمته، وجعل يحرض على قتال رسول الله ، وينشد الأشعار، ويندب من قتل من المشركين يوم بدر، ثم عاد إلى المدينة، فجعل يشبب بنساء المسلمين، ويهجو النبى ، وأصحابه.. ولم يخرج من مكة حتى أجمع أمرهم على قتال رسول الله ، وجعل يشبب بأم الفضل بنت الحارث (الغزل الصريح)؛ وهى زوجة العباس بن عبد المطلب، وهى (لبانة) كانت ثانية النساء المؤمنات بعد خديجة رضى الله عنهما [2].

وقد صدقت امرأته حين وصفته بقولها " أنت امرؤ محارب " [3].

فإذا أقر النبى قتل هذا الرجل. فهل يعتبر في ذلك قسوة؟! أليس هذا الإقرار فيه رحمة للعالمين؟!.

فالقاضى مثلا - وهو من أرحم الرحماء - إذا حكم بالموت على إنسان ارتكب جريمة واحدة. فهل يُتهم بالقسوة؟!.

فما بالهم يذكرون الإقرار بالعقوبة ويتناسون هذه الجرائم الدنيئة التى ارتكبها هذا الرجل، وقد تحول من حليف إلى محارب!!

* * *

---

(١) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص ٥٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٤، مرجع سابق، ص ٧، ٨.

(٣) المرجع السابق، ص ٩.

الشبهة السادسة: حول قتل أسيرين من أسارى بدر

لقد تعجب البعض ممن يثيرون هذه الشبهة، وهى قتل (النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط)، وقد أدحض " هيكل " هذه الفرية عندما ذكر أن " ما صنعه المسلمون بأسرى بدر يعد آية في الرحمة وفى الحسنى، وهو لا يساوى شيئا يذكر إلى جانب المجازر الكثيرة التى قامت باسم المسيحية، مثل مجزرة (سان بارتلمى) التى تعتبر سبة في التاريخ، حيث قام الكاثوليك يذبحون البروتستانت في فرنسا في أحط وأبشع صور الغدر والغيلة[١].

وقد ذكرت كتب السيرة، وكذلك الصحاح، ما لقيه النبى من أذى شديد من هذين الرجلين، ومن هذه الأمثلة - على سبيل المثال وليس الحصر - ما يلى:

" كان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ، وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم، وأسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله مجلسا فذكر فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثا منه، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها. وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول، نزل فيه ثمان آيات من القرآن الكريم، منها إذا تتلى عليه ءايتنا قال أسطير الأولين)

أما " عقبة بن أبي معيط " فيكفى ما ذكره النبى ، حين قال: " أتدرون ما صنع هذا بي؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى، وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينى ستندُران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى " [٢].

فهل يُصنع ذلك بخاتم الأنبياء والمرسلين، وصاحب الخلق العظيم؟!! سحقا لمن يثيرون هذه الشبهة!

* * *

---

(١) محمد حسين هيكل: حياة محمد، مرجع سابق، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، مج٢، ج٣، مرجع سابق، ص ٣٤١.

الشبهة السابعة: نفى فرية قتل عصماء بنت مروان وأبي عفك:

لقد أشرت في الفصل الثالث إلى أهم التعليمات النبوية الأخلاقية والمقيدة بقيود رحيمة (قبل القتال) في سيرة رسول الله ، كالنهى عن المثلة والظلم والفساد، وقتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء... ودللت على ذلك ببعض الأمثلة.

لقد فطن إلى سخف هذه الفرية (مولاى محمد على) رئيس الرابطة الأحمدية لإشاعة السلام بلاهور، وأدحض الافتراءات التى رواها (المستر كاش) - أحد خصوم الإسلام - في شأن قتل عصماء بنت مروان، وأبو عفك اليهودى.

وقد دلل على ذلك بأدلة قوية، وذكر أن " كل القرائن تكذب هذا، فما كان الواقدى أو غيره حجة قاطعة في الرواية.. فكيف يثنى النبى على عمير بن عدى حين قتلها؟ بل قيل إن النبى هنأه على فعلته هذه، وسمَّاه البصير وكان كفيفا! إن القرآن الكريم أصدق كتاب، أذن بقتال العدو المعتدى، ولكنـه لم يأمر بقتل من يؤذى النبى أو المسلمين، بل أوصى بتحمل الأذى، والصبر عليه، وما كان من المعقول أن يأمر النبى بقتل امرأة من أجل أشعار لم ترضه، وهو الذى نهى عن المثلة، وأوصى بالصبر على المكاره، وتحمل العذاب والاضطهاد! كما أن ما ذكره البخارى - وهو أصدق من روى الحديث - في كتاب الجهاد، يؤكد أن رسول الله ، نهى وحذر من قتل النساء في أثناء الحرب، فهل من المعقول أن النبى ، الذى يأمر بعدم قتل النساء المشتركات في الحرب، يأمر بقتل امرأة، لا لشئ إلا لأنها قالت شعراً يكرهه المسلمون؟! لقد كان أتباع النبى ، يعلمون علم اليقين نهيه عن قتل النساء، ولذلك عندما همُّوا بقتل ابن أبي الحقيق - كما جاء في الصحاح - حالت امرأته بينه وبينهم، فأمسكوا سيوفهم، احتراما والتزاما لأمر رسول الله .

ثم خلص إلى أن الحقيقة الناصعة، التى لا يشوبها شائبة، هى تحريم النبى ، قتل النساء، حتى ولو كن في حومة الوغى، وليس البخارى وحده هو الذى ذكر ذلك، بل ذكرته الكتب الصحاح الستة، وهذا يؤكد أن صحة تحريم قتل النساء لا يرقى إليها الشك [1].

أما قصة (أبي عفك اليهودى) فهى أيضا فرية كاذبة ووضعية، لأن تحريم قتل النساء، يتضمن تحريم قتل الأطفال والطاعنين في السن، فقد ذُكر أن هذا الرجل كان طاعنا في السن، بلغ مائة وعشرين سنة، ولكنه كان يحرص على إيذاء النبى ويهجوه بالشعر..

---

(١) مولاى محمد على: محمد رسول الله، القاهرة: دار مصر للطباعة، (د. ت) ص ٢٥٦ - ٢٥٨ (ببعض تصرف).

وقد ورد ذكر الطاعنين في السن في الحديث الشريف، الذى رواه أبو داود، ورواه أنس بن مالك، وهو يحرم قتل الطاعنين في الســن، والأطفال، والنساء، وإن وصية أبي بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان، التى أمره فيها بعدم قتل النساء والأطفال والطاعنين في السن، لخير دليل على أن النبى ، أمر بعدم قتل المسنين، فما كان الصديق (ﷺ) إلا مقتفيا آثار النبى دائما [1].

كما نفى هذه الشبهة نفيا قاطعا صاحب كتاب " محمد المثل الكامل " قائلا بأنه ليس من المعقول أن يجرؤ مسلم على قتل امرأة أو رجل طاعن في السن، لا لشئ إلا لأنه قال شعر يهجو به المسلمين! وإذا كان بعض المؤرخين قد ذل ونسب إلى النبى ذلك، من غير سند صحيح، أو حجة واضحة، فلا يجب أن نقيم لكلامه وزنا، لأن كتاب الله عز وجل، والأحاديث الصحيحة الثابتة، تنفى هذه الادعاءات الكاذبة " [2].

كما فطن إلى دحض هذه الفرية - العقاد - حين قال " إن الحوادث التى ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء في غير جريرة، فأكثرها لم يثبت قط ثبوتا يقطع الشك فيه، ولاسيما القول بتحريض النبى ، على قتل (عصماء بنت مروان) اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين، فإن النبى قد نهى في قول صريح عن قتل النساء، وكرر نهيه في غير موضع، حتى قال بعض الفقهاء، يمنع قتل المرأة، وإن خرجت للقتال، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها. كما أن حياة النبى كلها في طفولته الباكرة تنفى الشبهة في القسوة والجفاء.. إذ كان في كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه.. مثلا للرحمة التى عز نظيرها في الأنبياء [3].

وهل الهجاء أكثر جرما من تعمد القتل؟! فقد عفا النبى على المرأة اليهودية، وقد اعترفت وأقرت بوضعها السم في الشاة! وقد أشرت إلى هذه القصة في الفصل الأول من هذا البحث.

* * *

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥٩.

(٢) محمد أحمد جاد المولى: محمد ◘ المثل الكامل، القاهرة:عالم الكتب، ١٩٩٨، ص ٤٤٣، ٤٤٤.

(٣) عباس محمود العقاد: عبقرية محمد، مرجع سابق، ص٥٢، ٥٣.

الشبهة الثامنة: ما كان النبى ليقاتل للغنائم أو الجزية:

وتمت الإشارة في الفصل الثالث من هذا البحث، تحت عنوان " الجزية مبدأ إسلامى ليس له مثيل " وذلك ضمن الحديث عن القواعد والضوابط الأخلاقية بعد القتال، وأهم الأمور الأخلاقية والقواعد التى تتعلق بالجزية.

ويكفى أن أضيف شهادة المفكر المعروف (نبيل لوقا بباوى) وهو مفكر معاصر من غير المسلمين، فقد دحض هذه الفرية دحضا تاما، ومن بين ما ذكره " أن هؤلاء المستشرقين انساقوا بزعمهم هذا وراء أهوائهم المضللة، فلم يروا الحقيقة في صورتها الوضيئة، فهذه الجزية لم تكن عقوبة على من لا يدخل الإسلام، ولكنها - في حقيقتها - ضريبة للمشاركة في نفقات الجيوش الإسلامية، التى تلتزم بالدفاع عنهم بموجب عقد الأمان؛ فليس من المعقول أن تدافع الجيوش الإسلامية عمن تعاهدهم، دون أن يسهموا في نفقات الجيوش، وليس من العدالة ولا من السماحة أن يجبر غير المسلم على الانضمام إلى الجيش الإسلامى الذى يتحرك لأهداف إسلامية، وهم لا يدينون بالإسلام! يضاف إلى ذلك أن المسلم ملزم كذلك بالزكاة لتمويل النفقات العامة في الدولة الإسلامية، ومن بينها الإنفاق على الجيش الإسلامى.

كما أن قيمة الجزية لم تكن ثابتة في كل الأحوال، ولكنها تختلف باختلاف الإمكانات المالية لمن تفرض عليهم، ويرجع في تقديرها إلى طاقة الدافعين وقدرتهم، بحيث لا يرهقون.. والشئ الذى يجب أن يعلمه هؤلاء المستشرقون، أن الجزية كانت تفرض على كل من يستطيع المشاركة في الحرب، فلا جزية على طفل، ولا على امرأة، ولا على شيخ مسن، ولا على مريض، ولا على راهب في صومعته، حتى إنه إذا اشترك غير المسلم مع المسلمين في الحرب، سقطت عنه الجزية، كما هو معروف في نصوص عقود الأمان التى أبرمها الرسول وخلفاؤه من بعده [1]. هذه هى شهادة عدل وصدق وحق، قيلت بحيادية تامة من عالم ومفكر من غير المسلمين.

فهل بعد هذا القول يبقى مطعن لأى قائل أو مرجف؟!

أما القتال من أجل الغنائم: فحسبنا ما أجمعت عليه كتب السيرة، والصحاح، على أن رسول الله ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وليس في بيته دينار واحد. فقد قال النبى ، لعائشة رضى الله عنها، وهى مسندته إلى صدرها: يا عائشة. ما فعلت تلك الذهب؟ قالت: هى عندى، قال: فأنفقيها! ثم غشى على رسول الله ، وهو على صدرها،

---

(١) نبيل لوقا بباوى: انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء (٢)، مجلة منبر الإسلام، مرجع سابق، ص ١٧٥٣.

فلما أفاق قال: آنفقت تلك الذهب يا عائشة؟ قالت: لا والله يا رسول الله! قالت: فدعا بها، فوضعها في كفه فعدها، فإذا هى ستة دنانير، فقال: ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وهى عنده؟ فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم [١].

هكذا كان حال النبى ، طيلة حياته، وليس في مرضه الأخير.

فعن عقبة بن الحارث قال: " انصرف رسول الله ، من صلاة العصر، فأسرع ولم يدركه أحد، فعجب الناس من سرعته، فلما رجع إليهم، عرف ما في وجوههم فقال: كان عندى تبر (أوقيتين من ذهب الصدقة) في البيت، فكرهت أن أبيته عندى، فأمرت بقسمه [٢].

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى، مج٢، مرجع سابق، ص ٢٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٨.

ملحق خاص بالغزوات والسرايا

ثبت هذا الملحق بالمصادر التالية:

ابن هشام: سيرة النبى ، مرجع سابق.

ابن سعد: الطبقات الكبرى، مرجع سابق.

ابن كثير: البداية والنهاية، مرجع سابق.

ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدى خير العباد، مرجع سابق.

السنة	الغزوة	نبذة مختصرة عنها	السرايا
السنة الأولى (١ هـ)	١ - غزوة ودان (الأبواء)	كانت في صفر ٢ هـ ولم يحدث فيها قتال، وفيها وادع النبي سيد بني ضمرة على ألا يغزوهم ولا يغزونه، وألا يعينوا عليه أحداً، وكتب لهم كتابا بذلك.	١ - سرية حمزة بن عبد المطلب (سيف البحر) رمضان ١هـ ٢ - سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب (رابغ) / شوال ١هـ ٣ - سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرّار/ ذو القعدة ١هـ
السنة الثانية (٢ هـ)	٢ - غزوة بواط	كانت في ربيع الأول ٢ هـ ولم يحدث فيها قتال، ورجع النبي ولم يلق كيدا.	٤ - سرية عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة وقتل فيها واحد من المشركين/ رجب ٢ هـ
	٣ - غزوة سفوان (بدر الأولى)	كانت في ربيع الأول ٢ هـ بسبب إغارة كرز ابن جابر الفهري على سرح المدينة، فخرج إليه النبي ، إلا أنه لم يدرك السرح، فرجع النبي ولم يلق كيدا.	
	٤ - غزوة العشيرة (ذات العشيرة)	كانت في جمادى الآخرة ٢ هـ بهدف طلب عير لقريش، ومر النبي ببني مدلج فضيفوه، وأحسنوا ضيافته، ففاتته العير ولم يلق كيدا.	

تابـع السنة الثانية (٢ هـ)	٥ - غزوة بدر الكبرى(بدرالقتال)	كانت في رمضان ٢ هـ وقد جمع الله عز وجل بين المسلمين بقيادة رسول الله ، وبين قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب، وانتصر المسلمون، وقتل (٧٠) من المشركين، وأسر (٧٠)، واستشهد من المسلمين (١٤).	
	٦ - غزوة بني قينقاع	كانت في شوال ٢هـ وكان سببها أن رسول الله ، كان قد كتب كتابا وداع فيه اليهود، إلا أنهم نقضوا العهد وتطاولوا، وقالوا: نحن بنو الحرب، ولئن قاتلتنا لتعلمن أنك لم تقاتل مثلنا، فحاصرهم النبي ، وانتهى الأمر بجلائهم عن المدينة إلى أذرعات الشام.	
	٧ - غزوة السويق	كانت في ذي الحجة ٢هـ لم يلق فيها النبي كيدا، وهرب أبو سفيان ومن معه، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون ويلقون جرب السويق، فسميت لذلك ذات السويق.	

السرايا	نبذة مختصرة عنها	الغزوة	السنة
٥ - سرية محمد بن مسلمة إلى كعب ابن الأشرف اليهودى/ربيع الأول ٣ هـ ٦ - سرية القردة بناحية نجد بقيادة زيد بن حارثة / جمادى الآخرة ٣هـ	وكانت في المحرم ٣ هـ وقد بلغ النبي أن بها جمعا من غطفان وبني سليم، فسار إليهم فتفرقوا، وعاد النبي ولم يلق كيدا.	٨ - غزوة قرقرة الكدر	السنة الثالثة (٣ هـ)
	كانت في ربيع الأول ٣هـ وكان سببها أن قوما من بني ثعلبة من غطفان، وبني محارب تجمعوا يريدون أن يصيبوا أطراف المدينة، بقيادة دعثور ابن الحارث المحاربي، فلما بلغ رسول الله الخبر، سار إليهم حتى بلغ ذي القصة، فلقي بها رجلاً من بني ثعلبة، فدعاه رسول الله إلى الإسلام، فأسلم، وهرب المشركون إلى رؤوس الجبال، ثم مضى دعثور إلى أصحابه ودعاهم إلى الإسلام.	٩ - غزوة غطفان (ذي أمر)	
	كانت في جمادى الأولى ٣ هـ وسببها أن جمعا من بني سليم تجمعوا ببحران، فبلغ ذلك النبي ، فخرج إليهم، فوجدهم قد تفرقوا ورجعوا إلى مياههم فانصرف ولم يلق كيدا.	١٠ - غزوة بحران (بني سليم)	

تابع السنة الثالثة (٣ هـ)	١١ - غزوة أحد	كانت في شوال ٣ هـ ثلاثة آلاف من المشركين بقيادة أبو سفيان، مقابل ألف من المسلمين، وكانت ابتلاء وتمحيصا للمسلمين لأنهم خالفوا أمر النبي ، واستشهد فيها (٧٠) من المسلمين، وقتل فيها (٢٢) من المشركين، ولا نسمي نصرًا أو هزيمة لكلا الفريقين.	
	١٢ - غزوة حمراء الأسد	كانت في شوال ٣هـ وكان المشركون قد تجمعوا بعد غزوة أحد بحمراء الأسد، فخرج إليهم النبي بمن كان معه في أحد وحتى الجرحى، فلم يصادف النبي منهم أحدا، ولم يلق كيدا وقيل قتل فيها أحد المشركين، وهذا يدل على أن غزوة أحد لم تكن نصرا للمشركين بالمعنى المعروف.	

السنة	الغزوة	نبذة مختصرة عنها	السرايا
السنة الرابعة (٤ هـ)	١٣ - غزوة بنى النضير	وكانت في ربيع الأول ٤ هـ وقيل في جمادى الأولى، وذلك لأنهم هموا بقتل النبي ، ومحاولة إلقاء رحى عليه، ونقضهم العهد، فأخبره جبريل عليه السلام بذلك، فحاصرهم النبي ، وأجلاهم عن المدينة بأموالهم دون السلاح.	٧ - سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي إلى بنى أسد/ المحرم ٤هـ ٨ - بعث المنذر بن عمرو (حادث بئر معونة) صفر ٤ هـ استشهد (٦٩) من المسلمين ٩ - بعث مرثد بن أبي مرثد الغنوي (حادث الرجيع) صفر ٤هـ استشهد فيها(٦) من المسلمين ١٠ - سرية عبد الله بن أبي عتيك الخزرجي إلى ابن أبي الحقيق اليهودي / في ذي الحجة ٤ هـ
	١٤ - غزوة بدر الآخرة (الموعد)	في ذي القعدة ٤هـ وذلك أن أبا سفيان بن حرب نادى يوم أحد: موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول نلتقي فنقتتل، فوفى رسول الله ،فأتى بدر الموعد، ولم يأت أبو سفيان، وكانت بدرا موسما للعرب، فتاجر المسلمون فربحوا.	
السنة الخامسة (٥ هـ)	١٥ - غزوة ذات الرقاع	وكانت في المحرم ٥ هـ وقيل ربيع الآخر، وسببها: أن بني أنمار بن بغيض، وبنى سعد بن ثعلبة جمعوا جمعا عظيما لرسول الله ، فلما دنا منهم النبي ، وعاينوا عسكره، ولوا عن المسلمين وكرهوا لقاءهم.. فانصرف رسول الله ولم يلق كيدا.	

تابع السنة الخامسة (٥ هـ)	١٦ - غــزوة دومــة الجندل	وكانت في ربيع الأول ٥ هـ وسببها أن جمعا من قضاعة ومن غسان تجمعوا، وهموا بغزو الحجاز، فسار نحوهم النبي ، فلما انتهى إلى موضعهم وجدهم قد تفرقوا وهربوا، ولم يلق كيدا.	
	١٧ - غزوة بني المصطلق (المريسيع)	وكانت في شعبان ٥ هـ وسببها: أن الحارث بن أبي ضرار سيد خزاعة، جمع جموعا واستعد للمسير إلى رسول الله ، فلما بلغ النبي ذلك سار في المسلمين. فلما بلغ المريسيع أمر عمر بن الخطاب أن يعرض عليهم الإسلام، فأبوه، فحملوا عليهم المسلمون، وأسروا منهم الكثير، واستشهد واحد من المسلمين، وغنم الله المسلمين أموالهم وسبيهم، وكانت جويرية بنت الحارث في السبي، فأعتقها رسول الله بعد أن أسلم الحارث بن أبي ضرار، وتزوجها النبي ، وأعتق قومها، وانصرفوا إلى منازلهم	
تابع السنة الخامسة (٥ هـ)	١٨ - غزوة الخندق (الأحزاب)	وكانت في ذي القعدة ٥ هـ وقيل في شوال. لما علم النبي بتحزب الأحزاب بقيادة أبو سفيان واليهود، ندب المسلمين إلى قتالهم، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق، وأيدهم الله عز وجل بجنوده فأرسل عليم الريح وقذف في قلوبهم الرعب، وكانت خديعة نعيم ابن مسعود، وولوا مهزومين بإذن الله واستشهد (٦) من المسلمين وقتل (٣) من المشركين.	
	١٩ - غزوة بني قريظة	وكانت في ذي القعدة ٥ هـ وقيل في ذي الحجة وذلك بعد الخيانة العظمى من بني قريظة في غزوة الأحزاب، فأشار جبريل إلى رسول الله وسلم أن يذهب إليهم، فنزلوا على حكم رسول الله ، وارتضوا بحكم سعد بن معاذ فحكم فيهم بحكم التوراة، بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية.	

السنة السادسة (٦ هـ)	٢٠ - غزوة بنى لحيان	وكانت فى ربيع الأول ٦ هـ وقيل ربيع الآخر وكانوا قد تجمعوا لقتال المسلمين، فلما بلغهم إقبال النبى إليهم، هربوا، ولم يلق النبى كيدا.	١١ - سرية عبد الله بن أنيس / المحرم ٦هـ ١٢ - سرية محمد بن مسلمة لبنى بكر بن كلاب بناحية (ضرية) المحرم ٦هـ ١٣ - سرية أبو بكر الصديق لأتباع بنى لحيان/ ربيع الأول ٦هـ ١٤ - سرية عكاشة بن محضن لبنى أسد/ ربيع الآخر ٦هـ ١٥ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القصة /ربيع الآخر ٦هـ ١٦ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى مصارع / ربيع الآخر٦هـ
	٢١ - غزوة الغابة (ذى قرد)	وكانت أيضا فى ربيع الأول أو الآخر ٦هـ وكان سببها: أن عيينه بن حصن بن حذيفة أغار على لقاح رسول الله ، وهى ترعى بالغابة، فوجه النبى ، المقداد بن عمرو، وقيل سعد بن زيد الأشهلى فى عدد من المسلمين، فتخلصوا عشرا منها وكانت عشرين، واستشهد اثنين من المسلمين، وقتل واحد من المشركين، وولوا هاربين ونهى رسول الله عن اتباعهم.	

السنة السادسة (٦ هـ)	٢٠ - غزوة بني لحيان	وكانت في ربيع الأول ٦ هـ وقيل ربيع الآخر وكانوا قد تجمعوا لقتال المسلمين، فلما بلغهم إقبال النبي إليهم، هربوا، ولم يلق النبي كيدا.	١١ - سرية عبد الله بن أنيس / المحرم ٦هـ ١٢ - سرية محمد بن مسلمة لبني بكر بن كلاب بناحية (ضرية) المحرم ٦هـ
	٢١ - غزوة الغابة (ذي قرد)	وكانت أيضا في ربيع الأول أو الآخر ٦هـ وكان سببها: أن عيينه بن حصن بن حذيفة أغار على لقاح رسول الله ، وهي ترعى بالغابة، فوجه النبي ، المقداد بن عمرو، وقيل سعد بن زيد الأشهلي في عدد من المسلمين، فتخلصوا عشرا منها وكانت عشرين، واستشهد اثنين من المسلمين، وقتل واحد من المشركين، وولوا هاربين ونهى رسول الله عن اتباعهم.	١٣ - سرية أبو بكر الصديق لأتباع بني لحيان/ ربيع الأول ٦هـ ١٤ - سرية عكاشة بن محضن لبني أسد/ ربيع الآخر ٦هـ ١٥ - سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصة /ربيع الآخر ٦هـ ١٦ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى مصارع / ربيع الآخر٦هـ
			١٧ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة/ربيع الآخر ٦هـ
تابع السنة السادسة (٦ هـ) تابع السنة السادسة (٦ هـ)	٢٢- غزوة خيبر	وكانت في صفر ٧هـ وقيل في ربيع الأول أو جمادي الأول. وذلك لنقضهم العهود والمواثيق، فسار إليهم النبي ، فماكثوه وطاولوه، وقاتلوا المسلمين، ونزل بعضهم مع ابن أبي الحقيق بعد الحصار، فصالحوا النبي على حقن الدماء.. فأقرهم في الأرض، وعاملهم على الشطر من التمر والحب وقد استشهد من المسلمين (٢٠) وقتل من المشركين (٢)	١٨ - سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالجموم/ربيع الآخر٦هـ ١٩ - سرية زيد بن حارثةإلى العيص/جمادى الأولى ٦هـ ٢٠ - سرية زيد بن حارثة إلى الطرف/ جمادي الآخرة ٦هـ ٢١ - سرية زيد بن حارثة إلى لخم وجذام/ جمادي الآخر ٦هـ ٢٢ - سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى/ رجب ٦هـ ٢٣ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل/ شعبان ٦هـ ٢٤ - سرية على بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك/ شعبان ٦هـ ٢٥ - سرية زيد بن حارثة إلى قرفة الفزارية /رمضان ٦هـ ٢٦ - سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام /شوال ٦هـ ٢٧ - سرية كرز بن جابر الفهري إلى عكل وعرينة /شوال ٦هـ

السنة السابعة (٧هـ)	٢٣ - غزوة وادي القرى	في جمادي الآخرة ٧هـ وقيل في المحرم، وبلغ عدد المسلمين فيها ألفا وثلاثمائة واثنين وثمانين، في مواجهة اليهود من سكان وادي القرى، وقتل فيها (أحد عشر) قتيلا من الأعداء، واستشهد أحد المسلمين	٢٨ - سرية عمر بن الخطاب إلى تربة/ شعبان ٧هـ ٢٩ - سرية أبو بكر الصديق إلى نجد/ شعبان ٧هـ ٣٠ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك / شعبان ٧هـ ٣١ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني مرة أيضا/رمضان٧هـ ٣٢ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى أهل الميفعة /رمضان ٧هـ ٣٣ - سرية بشير بن سعد إلى يُمن وجبار /شوال ٧هـ ٣٤ - سرية ابن أبي العوجاء السلمي إلى بني سليم/ فىذي الحجة٧هـ

السنة الثامنة (٨هـ)	٢٤ - فتح مكة	وكان فى رمضان ٨هـ بسبب نقض قريش العهد مع رسول الله ، حيث كانت خزاعة فى العهد مع رسول الله، وأعانت قريش قبيلة بكر عليها، فاستنصرت خزاعة بالنبى ، فكان الفتح المبين، ودخول الناس فى دين الله أفواجا واستشهد (٣) من المسلمين وقتل (٢٤) من المشركين	٣٥ - سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى الملوح/ صفر ٨ هـ ٣٦ - سرية عمرو بن أمية الضمرى إلى مكة / صفر ٨هـ ٣٧ - سرية شجاع بن وهب الأسدى إلى بنى عامر /ربيع الأول ٨ هـ ٣٨ - سرية كعب بن عمير الغفارى إلى ذات أطلاح /ربيع الأول٨هـ ٣٩ - سرية زيد بن حارثة إلى مؤتة /جمادى الأولى ٨هـ واستشهد (١٤) من المسلمين وقتل (١٤) من المشركين
	٢٥ - غزوة حنين	شوال ٨هـ وذلك أن النبى علم أن قبائل هوازن وثقيف قد تجمعوا لقتال المسلمين بأوطاس، فخرج إليهم النبى فى اثنى عشر ألفا من المسلمين وهزم الله المشركين، بعد أن أعطى الله عز وجل درسا قاسيا للمسلمين بعدم الاعتداد بالكثرة واستشهد (٤) من المسلمين وقتل (٧١) من المشركين.	

تابع السنة الثامنة (٨هـ)	٢٦ - غزوة الطائف	وكانت في شوال. عندما تجمع فلول الهاربين من غزوة حنين في الطائف وأوطاس وبجيلة، فسار إليهم النبي وحاصرهم بضع عشرة ليلة وهم وراء الحصون، ولم يخرج إليه أحد سوى أبي بكرة بن مسروح ولم يأذن الله لرسوله في فتح الطائف فرجع هو وأصحابه واستشهد فيها (١٢) من المسلمين.	٤٠ - سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل (وادي القرى) /جمادي الآخرة ٨ هـ ٤١ - سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى جهينة/ رجب ٨ هـ ٤٢ - سرية أبي قتادة إلى بني غطفان /شعبان ٨ هـ ٤٣ - سرية أبي قتادة النعمان إلى إضم/ شعبان ٨هـ ٤٤ - سرية خالد بن الوليد لهدم العزى ببطن نخلة /رمضان ٨هـ ٤٥ - سرية عمرو بن العاص لهدم سواع/ رمضان ٨هـ ٤٦ - سرية سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة/ رمضان ٨هـ ٤٧ - سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة بناحية يلملم/ شوال ٨ هـ ٤٨ - سرية الطفيل بن عمرو الدوسي لهدم صنم عمرو بن حممة الدوسي/ في ذي الحجة ٨ هـ

السنة التاسعة (٩ هـ)	٢٧ - غزوة تبوك	فى رجب ٩هـ وسببها: أن رسول الله ، علم أن الروم تستعد لقتال المسلمين، فسار إليهم النبى ليبادرهم، ولكن النبى لم يلق أحدًا ولا كيدًا، فعاد إلى المدينة بعد مشاورة أصحابه	٤٩ - سرية عيينة بن حصن إلى بنى تميم/ المحرم ٩هـ ٥٠ - سرية قطبة بن عامر إلى خثعم/ صفر ٩هـ ٥١ - سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى قوم من بنى كلاب/ ربيع الأول ٩هـ ٥٢ - سرية علقمة بن مجزر المدلجي إلى الحبشة/ربيع الأول وقيل الآخر ٩هـ ٥٣ - سرية على بن أبي طالب لهدم الفلس، صنم طئ /ربيع الأول ٩هـ ٥٤ - سرية خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة/ رجب ٩هـ

السنة	الغزوة	نبذة مختصرة عنها	السرايا
السنة العاشرة (١٠هـ)			٥٥ - سرية خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران/ ربيع الآخر ١٠ هـ ٥٦ - بعث على بن أبي طالب إلى اليمن لقبض الصدقة/رمضان ١٠هـ ٥٧ - سرية جرير بن عبد الله البجلي لهدم ذي الخلصة/رمضان ١٠هـ
السنة الحادية عشرة (١١هـ)			٥٨ - سرية أسامة بن زيد إلى أبنى (مؤتة) صفر ١١هـ

***



صور مشرقة من الجوانب الخلقية للحرب والسلام

فى السيرة النبوية المطهرة

إعـداد

محمد جابر أبو الحديد أبو الخير

باحث أول (خبير)

تربوى وداعية إسلامى

ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ

إبريل ٢٠٠٧ م

لقد استهللت هذا البحث بمقدمة نوهتُ فيها إلى ضرورة الالتفات إلى هذا البيان القرآنى الذى جاء بأسلوب الحصر والقصر ، لرسول الله (ﷺ) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ (١) ، وفى الآية نفسها يقرر الحق تبارك وتعالى فى وضوح شديد حقيقة هامة بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾

(٢). هذا ، إضافة إلى البيان القرآن الآخر الذى صرح فيه الحق تبارك وتعالى - بأسلوب الحصر والقصر أيضا - مؤكدا أن رسول الله (ﷺ) ، رحمة للعالمين﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾

(٣). أى أن رحمته تتسع لتشمل جميع الأمم والأجناس ، إنسهم وجنهم ، بل حتى الحيوان والحشرات والنبات ..

ومن هذا المنطلق تأتى الأهمية الكبرى لهذا البحث ، وغيره من الأبحاث ذات العلاقة ، والتى تصل فى أهميتها إلى درجة الوجوب ؛ وخاصة فى هذا العصر دون غيره ، حتى يقف الناس جميعا ، ويعلم الخصوم ، الحقيقة الناصعة للجوانب الخلقية للحرب والسلام فى سيرة رسول الله (ﷺ) ، والتى يتجلى فيها التسامح فى ذروته ، والرحمة فى أبهى صورها ، والعفو الذى لا يبلغه أحد ، والمُثل العليا للكمال الإنسانى فى كل ما تتسع له طاقة أى إنسان.

كما تبين أيضا من خلال الرجوع إلى الأبحاث والدراسات السابقة فى هذا الجانب الهام والحيوى ، أنها لا تتعدى سوى مقالات نادرة هنا وهناك ، الأمر الذى يعطى لهذا البحث أهمية كبيرة .

وخاصة أن سهام الخصوم المسمومة أصبحت تتجه أكثر من ذى قبل - لوفرة التقانات الحديثة - إلى الرسالة الخاتمة والعالمية ، بإثارة الشبهات والافتراءات الزائفة ، ومثلهم فى ذلك كمثل الذى يريد أن يطفئ نور الشمس أو نور القمر بنفخة من فمه ! وهذا محال ، بل هو وهم وزيف وغرور !

وقد اعتمدت على عدد من مناهج البحث ، كالمنهج التاريخى ، والمقارن ، إضافة إلى الاستنباط والاستقراء والتحليل ..

وأما حدود هذا البحث ، فقد حاولت جهدى أن أسير فى حدوده المقصودة لا أتعداها .

١- وتأسيسا على ذلك ، وترسيخا لتعميق مبدأ الإقتداء برسول الله (ﷺ) ؛ من خلال سيرته العطرة ، فقد بدأت هذا البحث بفصل تمهيدى ، يؤكد ويبرهن بما لا يدع مجالا للشك والريب ، أن رسول الله (ﷺ) هو " حامل لواء الرسالة الخاتمة والعالمية " موضحا فى عجالة سريعة ، كيف كانت الحاجة ماسة وملحة إلى رسول خاتم ليخرج الناس جميعا من الظلمات إلى النور ، فى هذه الفترة بالتحديد ، ثم دقة وصدق وبلاغة التصوير ، حين يصور النبى (ﷺ) نفسه بأنه اللبنة المباركة الخاتمة.

كما وضحت بمزيد من التفصيل الأدلة القاطعة التى تؤكد للعالم أجمع ، أن رسول الله (ﷺ) ، هو صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية لتوافر عدة أمور منها :

- ثبات ودوام رسالته حتى قيام الساعة .
- أنه (ﷺ) رحمة للعالمين بمعجزته الأخلاقية .
- أن رسالته تتصف بالسماحة والتسامح مع الجميع .
- أنه (ﷺ) ، هو الشاهد على جميع الأمم السابقة .
- أن رسالته تمتاز بالوسطية والاعتدال ، والله سبحانه وتعالى عصمه حتى بلغها.
- أنه (ﷺ) ، نور ورسالته نور ... لا تنطفئ أبدا.

وقد دللت على كل هذا من خلال مواقف تطبيقية حقيقية من سيرة رسول الله (ﷺ).

٢- وكان لزاما بعد ذلك – تبعا لطبيعة هذا البحث – أن أوضح بجلاء من خلال سيرة رسول الله (ﷺ) ، أن النبى (ﷺ) ، هو المثل الكامل للسلام ، والمثل الكامل لحسن الجوار والعلاقات الدولية ، وذلك من خلال مواقف لا يرقى إليها أى مطعن . وكان من بين المحاور الرئيسية لهذا الفصل ما يلى :

- كلمة " السلام " يتنفسها المسلمون ليلا ونهارا.
- وقفة تأمل مع باب بنى شيبة قبل وبعد البعثة.
- النبى (ﷺ) يغير اسم (حرب) إلى (سلام).
- لواء النبى (ﷺ) يوم فتح مكة يؤكد روح السلام .
- ميثاق (كتاب) المدينة أرقى صورة لتقنين السلام.
- صلح الحديبية أصدق صورة لإيثار السلام.
- أول مبادرة دولية للسلام لرسول الله (ﷺ).

٣- وانطلاقا من ضرورة تحرير العقول الإسلامية ، وغير الإسلامية من الخلط الشديد والواضح حول فلسفة القتال فى السيرة النبوية المطهرة ؛ فقد أفردتُ فصلا كاملا حول هذا الموضوع الحيوى والهام ، حاولت فى بدايته إزالة هذا الخلط الواضح حول عدد من المفاهيم والمصطلحات الهامة ، كمفهوم الجهاد فى الإسلام كمنظومة شاملة ، ومفهوم القتال المشروع ، والتطرف ، والإرهاب ، والغلو ، والتنطع .... وقد أوليت مفهوم الجهاد فى الإسلام مزيدا من التوضيح لأنه كاد أن يكون محملاً بظلال سلبية كثيرة فى عصرنا الحالى .

- ثم انتقلت مباشرة لبيان وتوضيح أهم القواعد والضوابط الخلقية للقتال فى سيرة رسول الله (ﷺ) ، والتى بلغت من التسامح والرحمة والرفق والعدل .. مبلغا تعجز كل المذاهب والقوانين والمدنية الحديثة أن تأتى بجزء منه حتى بعد جهادها لآلاف من السنين .

وليسهل إبراز تلك القواعد الأخلاقية النبوية ؛ والتى لا يمكن الإحاطة بها بأى حال من الأحوال ، فقد رأيت – فى محاولة متواضعة منى – أن أقسمها تقسيما اصطناعيا إلى ثلاثة أقسام أو مراحل رئيسية :

- المرحلة الأولى (قبل الحرب أو القتال) ، وتدور حول عدة محاور فرعية هى :

أ) إيثار السلم على الحرب.

ب) تعليمات نبوية أخلاقية مقيدة بقيود رحيمة (كالنهى عن المثلة والظلم والفساد ، والنهى عن قتل النساء والشيوخ والأطفال والأجراء ، والتحذير الشديد من الغدر والخيانة ، وحرمة ذمة المعاهدين والنهى الشديد عن القتل).

ج) إعداد القوة الممكنة والمحكومة بأسمى الأخلاق ، إضافة إلى القوة المعنوية العالية التى تفوق الخيال .
د) الأخذ بمبدأ الشورى لاتقاء التنازع والخلاف.
هـ) ومحاولة استطلاع أخبار العدو.
و) ولزوم وجوب الطاعة المبصرة فى غير معصية.
- أما المرحلة الثانية (أثناء القتال) فقد تناولت المحاور الهامة التالية :
أ) الصبر والثبات وعدم الفرار.
ب) الدعاء عند لقاء الأعداء.
ج) الخديعة للضرورة بغية السلام.
د) عدم الإجهاز على الجرحى ..
- والمرحلة الثالثة (بعد القتال) فقد أبرزت فيها محاور هامة وأساسية تمثلت فيما يلى :
أ) الوفاء بالعهود والمواثيق وتحريم الخيانة فيها مع الأمثلة التى تؤكد هذه المبادئ الأصيلة .
ب) احترام كرامة العدو حتى بعد قتله ، والفرق الواسع بين أخلاق رسول الله (ﷺ)، حين أمر بدفن المشركين فى القليب ، ليوارى جثثهم بعيدا عن سباع الطير والوحوش ، وبين ما صنعته قريش حين مثَّلت بسيد الشهداء (حمزة عم رسول الله (ﷺ)) ، وبين ما يحدث ونشاهده الآن فى عصرنا الحاضر ! .
ج) أسمى آيات الرحمة فى معاملة الأسرى.
د) الجزية مبدأ إسلامى ليس له مثيل.
هـ) ثم أسمى أخلاق التسامح إذا استسلم العدو .
٤- وبديهى بعد إبراز أهم القواعد والضوابط الخلقية للحرب فى السيرة النبوية المطهرة ، يأتى الحديث مباشرة عن الجوانب التطبيقية والعملية لتلك القواعد الأخلاقية وذلك من خلال صور مشرقة من تلك الجوانب . فكان الفصل الرابع من هذا البحث حول (صور تطبيقية من الجوانب الخلقية للحرب فى السيرة النبوية) .

وقد حرصت أن تكون هذه الصور – تبعا لإطار هذا البحث – من خلال الغزوات التى اشترك فيها النبى (ﷺ) بصفة خاصة .

ففى غزوة بدر الكبرى ، بين القلة المؤمنة والكثرة المشركة ، دللت بخمس صور أخلاقية مشرقة من سيرة رسول الله (ﷺ) ، يتجلى فيها آيات الرحمة والرفق بأسرى المشركين ، وإكرامهم ، والنهى عن التمثيل بهم ، وما كان من أمر عمير بن وهب ، عندما أغراه صفوان بن أمية ، وعقد العزم على قتل رسول الله (ﷺ) ، فلما دخل على رسول الله (ﷺ) ، أخبره بما عقد نيته عليه قائلا له : " بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دين علىَّ وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا ، فتحمل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك ، على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك " فلما شهد عمير بن وهب شهادة الحق ، قال رسول الله (ﷺ) : " فقهوا أخاكم فى دينه ، وعلموه القرآن ، وأطلقوا أسيره " . ومثل أخلاقى آخر فى غزوة بدر يحتذى به فى حفظ الجميل ، وهو قول النبى (ﷺ) ، فى شأن " مطعم بن عدى " – وكان مشركا – لو كان مطعم بن عدى حيا ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لأطلقتهم له " ، رغم أن مسألة الأسرى حدث فيها مشاورات كثيرة ، وأنزل الله عز وجل فى هذا الأمر الهام قرآنا .. وقد بينت السر الذى دفع النبى (ﷺ) ليقول هذا القول أمام الجميع فى شأن هذا الرجل المشرك .

وفى غزوة أحد ، رغم هذه الفعلة النكراء ، التى لم يسبق لها مثيل ، وهى التمثيل بسيد الشهداء (حمزة بن عبد المطلب) رضى الله عنه ، ورغم ما حدث لرسول الله (ﷺ) فى هذه الغزوة ، فأخلاقه العظيمة تمنعه حتى من الدعاء على المشركين ، بل إنه (ﷺ) ، يدعو لهم بالهداية والمغفرة حين قال " اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون " .

وفى غزوة بنى المصطلق ، كيف عفا وتسامح النبى (ﷺ) – كما ذكر البخارى فى صحيحه - عن الرجل الذى كان يريد قتله بالسيف ، وهو يستظل بظل شجرة ، وقد سقط السيف من يد هذا الرجل . وكيف منَّ النبى (ﷺ) على جميع الأسرى ، إكراما لجويرية بنت الحارث ، بعد أن أسلمت وأسلم أبوها الحارث بن أبى ضرار ، ثم خطبها النبى (ﷺ) من أبيها ، فتزوجها رسول الله (ﷺ) ، بعد أن منَّ على جميع الأسرى من قومها .

وعقب غزوة خيبر ، كيف قابل النبى (ﷺ) ، غدر وخيانة امرأة سلام بن مشكم اليهودى ؛ بعد اعترافها وإقرارها بتعمد قتله بالسم ، بهذا التسامح الكبير ، والعفو عنها بعد كل ما حدث .

أما فى فتح مكة فقد تجلى خلق التسامح فى أبهى وأعظم صوره ، ولا عجب فى ذلك ، لأن صفة الرحمة وعدم الانتقام من الصفات التى كانت ملازمة لرسول الله (ﷺ) طوال حياته – سواء قبل البعثة أو بعد البعثة – وقد أوليت فتح مكة بمزيد من التفصيل ، حيث دللت على ذلك بأحد عشر موقف أخلاقى لرسول الله (ﷺ) ، يتجلى فى هذه المواقف أو الصور ، أعظم عفو عرفته الإنسانية فى القديم أو الحديث فى "ثلاث كلمات فقط" حين قال النبى (ﷺ) ، للآلاف من مشركى مكة " اذهبوا فأنتم الطلقاء.

فما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو! وارتفعت فوق الحقد والانتقام ! لقد نسى النبى (ﷺ) ، سنوات طويلة من الاضطهاد ، والتعذيب ، ومحاولة قتله عشرات المرات ، ونسى المقاطعة الرهيبة القاسية ، ونسى يوم أحد ، ويوم الأحزاب ، واتهامه بالكذب ، وهو أصدق البشر جميعاً ، واتهامه بالسحر ، والجنون ... وقد أصبحت قريش فى قبضة يده ، وحياة الآلاف معلقة بكلمة واحدة منه ، ويستطيع أن يبيد قريش جميعها ، وهو محق فى ذلك كل الحق ! لكنه صاحب الخلق العظيم ، لكنه صاحب الرسالة الخاتمة والعالمية ، لكنه رسول المحبة والسلام .. فليس للعداوة والانتقام مكانا فى قلبه ، وليس هو بالجبار أو المتكبر ، فضرب بذلك مثلا كاملا للإنسانية جمعاء فى العفو والوفاء والتسامح والرحمة .

ثم بينت كيف ضرب النبى (ﷺ) المثل الأوفى فى التواضع وقت النصر ، وكيف بلغ حرصه على صون الدماء حين خلع سعد بن عبادة من الإمارة ، وأسلمها إلى ابنه قيس بن سعد ، عندما بلغه أن سعد بن عبادة قال " اليوم يوم الملحمة .. " .

وكيف منَّ على أبى سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وصفوان بن أمية حين قال لهم ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢ ﴾

حتى الذين يجب قتلهم شملهم العفو أمثال (عبد الله بن سعد بن أبى سرح) ، وعكرمة بن أبى جهل ، وهبار بن الأسود ... وغيرهم) ، وكذلك شمل العفو سهيل بن عمرو ، الذى فاوض النبى (ﷺ) يوم الحديبية وحدث ما حدث ، وكذلك وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب ، سيد الشهداء ، وعم رسول الله (ﷺ)

وقد استجاب النبى (ﷺ) لإجارة أم هانئ عندما أمَّنت رجلين ، وهذا الموقف الأخلاقى العظيم مع عثمان بن طلحة ، الذى كان يحمل لواء المشركين يوم الخندق ، وما كان من أمره حين نال من رسول الله (ﷺ) ، وأغلظ له القول ...

وقد بلغ من خلق رسول الله (ﷺ) أنه لم يرد للمهاجرين دورهم التى استولى عليها المشركون ! بل إنه (ﷺ) لم يرخص للمهاجر أن يقيم بمكة بعد نسكه أكثر من ثلاث ، ولهذا رثى النبى (ﷺ) لسعد بن خولة ، وسمَّاه بائسا أن مات بمكة ، ودفن فيها بعد هجرته منها ! كما شمل العفو أيضا " فضالة بن عمير " الذى همَّ بقتل رسول الله (ﷺ) وهو يطوف بالبيت ، وأعطى الأمان لكعب بن زهير ، ومنَّ على ثمانين رجلا بغير فداء ، كانوا قد هبطوا من جبال التنعيم يريدون قتل النبى (ﷺ) هو وأصحابه .

أما بعد غزوة حنين ، فكان هذا الموقف الأخلاقى الكريم من رسول الله (ﷺ)، عندما منَّ على الآلاف من النساء والذرارى من سبى هوازن .

٥- وإيمانا بوجوب دحض الشبهات والافتراءات الزائفة حول القتال فى السيرة النبوية المطهرة ، وضرورة التصدى لها ، فقد أفردت فصلا كاملا لبطلان ودحض هذه الشبهات والافتراءات ، وبصفة خاصة التى تتعلق بموضوع الحرب أو القتال – تبعا لحدود هذا البحث -.

- فكانت الشبهة الأولى (حول مشروعية القتال لرسول الله (ﷺ)) بحجة أن الدين الحق – بزعمهم – يجب أن يدعو إلى السلام ، ولا يجوز أن يعتمد على الحرب .. وقد أدحضت هذه الفرية من ناحيتين أساسيتين ؛ الأولى وهى مشروعية القتال فى الأديان السماوية السابقة ، ودللت على ذلك بالعديد من الأسفار المسجلة فى العهد القديم أو العهد الجديد .
- أما الناحية الأخرى ، فهى ناحية الطبيعة البشرية ، وطبيعة العالم الأرضى المبنية على التدافع ، والتنازع والتغالب ، ولا يشذ عن هذه القاعدة كل الكائنات كالحيوانات والحشرات والنبات ، ثم أعقبت هذه الشبهة ببعض التساؤلات التى تدحض هذه الفرية دحضا تاما .
- أما الشبهة الثانية (فهى فرية انتشار الإسلام بحد السيف) وقد أوليت هذه الشبهة بصفة خاصة ، المزيد من التفصيل لأن كثيرا ما يثيرها خصوم الإسلام ، فدللت أولا ، كيف أن رسول الله (ﷺ) مكث ثلاثة عشر عاما فى مكة ، متحليا بالصبر والصفح الجميل ، ويجاهد بالقرآن الكريم وبالحجة وبالتى هى أحسن ... دون أن يحمل سيفا واحدا ، ثم عقبت بعدة تساؤلات فى هذا الصدد . ثم كيف شملت النبى (ﷺ) ، فى وسط هذا الجو الكثيف الظلمات ، رحمة الحنَّان ولطف المنَّان بالتسرية عن رسول الله (ﷺ) ، ثم بينت بما لا يدع مجالا للشك كيف أن إسلام الأوس والخزرج ينفى تهمة السيف تماما ، ووضحت الأسباب التى تؤكد هذا المعنى وهذا الاتجاه .

ثم دللت على دحض فرية السيف دحضا قاطعا من خلال كبار المفكرين ، (من غير المسلمين) أمثال { توماس كارليل وسيف العقل } { وشاسترى وسيف الرحمة } ، { ودى لاسى أوليرى وأسطورة السيف الخرافية } وتعليق أحمد ديدات على ذلك .. (ونبيل لوقا بباوى) - المفكر المسيحى المعروف – فى كتابه "انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء ٢٠٠٢" .

ثم دللت بالإحصاءات الحديثة على نفى تهمة السيف ، وكيف أنها خير شاهد على ذاتية انتشار الإسلام فى جميع أنحاء العالم .. حتى لا تبقى كلمة واحدة بعد ذلك لقائل أو محاج .

- أما الشبهة الثالثة : فكانت حول الحديث الصحيح لرسول الله (ﷺ) : " أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ... وقول الحق تبارك وتعالى ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ .

وقد نفى هذه الفرية عدد من العلماء الأجلاء ، على رأسهم الشيخ محمد الغزالى - رحمه الله - وأكدوا بما لا يدع مجالا للشك أن كلمة " النـاس " - سواء فى هذا الحديث الشريف أو فى سورة براءة - إنما يقصد بها العرب الوثنيون دون غيرهم . وقد عقبت على هذه الشبهة ببعض التساؤلات التى تنفى هذه الفرية نفيا قاطعا .

كما عقدت مقارنة من خلال تحليل غزوات رسول الله (ﷺ) ، بينت فيها كيف أن عدد شهداء المسلمين وعدد قتلى المشركين ، يقل عن حادث سفينة واحدة غرقت فى عرض البحر ، أو حادث طائرة تحطمت ! أو ما تحدثه القنابل العنقودية فى دقائق !

- أما الشبهة الرابعة ، فكانت حول الحكم على بنى قريظة ، وكيف أنهم نزلوا على حكم رسول الله (ﷺ) ، وارتضوا بأنفسهم حكم سعد بن معاذ رضى الله عنه ، فحكم بحكم التوراة التى بين أيديهم ، بل إن حكمه كان رحيما عن نص حكم التوراة ! .
- أما الشبهة الخامسة : فهى حول قتل كعب بن الأشرف اليهودى ، والعجب أشد العجب من أولئك الذين يثيرون هذه الشبهة حين يذكرون الإقرار بالعقوبة ويتناسون هذه الجرائم الدنيئة التى ارتكبها هذا الرجل فى حق رسول الله والمسلمين !! فالقاضى - وهو من أرحم الرحماء - يحكم بالموت على إنسان ارتكب جريمة واحدة ، وهو لا يُتهم بالقسوة ! .
- والشبهة السادسة ، فهى حول قتل أسيرين من أسارى بدر (عقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث) وكيف أن ما ارتكبه هذين الأسيرين من جرائم فى حق رسول الله (ﷺ) ، يتعدى عقوبة القتل آلاف المرات .
- أما الشبهة السابعة: فهى نفى تهمة قتل عصماء بنت مروان وأبى عفك اليهودى، ودللت على دحض هذه الشبهة بأدلة لا تقبل الشك . وكيف أن رسول الله (ﷺ) ، لا تسمح أخلاقه العظيمة ، أن يقر قتل امرأة قالت شعرا ، أو رجلا كبيرا طاعنا فى السن .
- أما الشبهة الثامنة والأخيرة : فهى حول نفى شبهة القتال من أجل الجزية أو الغنائم - كما يزعم البعض - ودللت على أن الجزية مبدأ إسلامى أخلاقى ليس له مثيل ، واستشهدت أيضا برأى بعض المفكرين المعروفين (من غير المسلمين) والذين نفوا هذه الشبهة أيضا نفيا قاطعا .

أما القتال من أجل الغنائم . فهذه الشبهة تُدحض من أول وهلة ، وخاصة إذا ما علم هؤلاء الخصوم أن رسول الله (ﷺ) ، قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ، وهو يقول " ما ظن محمد بربه أن لو لقى الله وعنده ستة دنانير ؟ ! فأنفقها كلها ومات من ذلك اليوم.

- وقد ذيلت البحث بملخص خاص بالغزوات والسرايا التى حدثت فى عهد رسول الله (ﷺ)

فهرس المحتويات

Contents